الفصل الثاني

التحركات العسكرية في حمص

منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي

أولاً: فتح حمص

- مقدمة:

١. مجريات الفتح:

أ- حصار حمص الأول "دور الاستيلاء".

ب- حصار حمص الثاني وفتحها ١٦ هـ/ ٦٣٧م.

٢. موقف الروم من الفتح الإسلامي لحمص.

٣. سكان حمص وموقفهم من الفتح الإسلامي.

ثانياً: دور الحمصيين في الفتوحات الإسلامية

١. مشاركة الحمصيين في فتح الجزيرة الفراتية.

٢. مشاركة الحمصيين في فتح أرمينية والشرق.

٣. مشاركة الحمصيين في غزو الروم في المتوسط.

٤. مشاركة الحمصيين في فتح القسطنطينية.

٥. مشاركة الحمصيين في فتح شمال أفريقيا والمغرب العربي والأندلس.

أولاً: فتح حمص

ـــــ مقدمة:

تعد الفتوحات الإسلامية واحدة من أهم الأحداث في تاريخ العالم، لدرجة أنها زعزعت وحدة عالم البحر المتوسط، ووصلت به إلى اكتساب حضارة جديدة انتشرت في جميع أراضيه، حتى وصلت إلى الهند والمحيط الأطلسي، وقد أثارت تلك الفتوحات الدهشة بسرعتها ووصولها إلى أقاصي البلاد خلال مدة قصيرة مع إقامتهم فيها مدة طويلة، كما لفتت الأنظار إليها من خلال التفاوت القائم بين الطرق والوسائل التي تم فيها فتح تلك الأراضي، واتساعها إذ استطاع شعب يعيش حياة القبائل مواجهة جيوش أكبر إمبراطوريتين آنذاك الرومانية والفارسية، والانتصار على جيوشها المدربة على أحدث أساليب القتال آنذاك، والمتوفر لديها المعدات الحربية المتطورة، بالرغم من بساطة معداته وتسليحه بعقيدة وإيمان لا يقهر، ثم ما لبث أن تمكن من إقامة دولة عظمى خاصة به سيطرت على معظم أنحاء العالم[1]، امتدت من الصين شرقاً حتى أسبانيا غرباً، وسيطرت على البحر المتوسط وجعلته بحيرة عربية إسلامية.

إن المتتبع لأخبار الفتوح يجد رصيداً كبيراً من المجال لا يتسع هنا لرصد كل التحركات العربية، أضف لذلك أن البحث المتناول عن فتح حمص، لذا سيكون الحديث ضمن هذا الإطار فمن يتتبع أخبار فتح حمص، يلحظ اختلافاً وتناقضاً بين عدد من الروايات في المصادر المتقدمة، فهناك اختلاط بين الروايات في تقديم الأحداث، وتأخيرها، وتظهر بصورة مرتبكة بين مصدر وآخر، وأحياناً بشكل موجز، هذا بالإضافة إلى ما شاع من اختلاف رقمي؛ من حيث ذكر سنوات الفتح، وعدد الجنود، ووقت الصلح، ومقدار الجزية، وخراج الأرض، وغيرها من مسائل

---

١ ـ بورلو (جوزيف): الحضارة الإسلامية، نقله إلى العربية ريمة الفوال، راجعه وقدم له سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص٣٨.

قيادة الجند ، والطرق المتبعة.

ويتضح من خلال هذه الروايات أن الجيش الإسلامي كان يسير وفق ما تتطلبه الأحداث، ووفق ما يواجه من أعداء، فكانت البداية في أجنادين[1]، وفحل[2]، سنة ١٣هـ/٦٣٤م، ثم دمشق وحمص سنة ١٤هـ/٦٣٥م، ثم اليرموك[3] ١٥هـ/٦٣٦م، ثم العودة إلى استكمال فتوح الشام.

وليس هذا مجالاً للحديث عن تلك المعارك ولكن لابد من الإشارة إلى أن مقدمات وطلائع فتح الشام، قد بدأت منذ عهد الرسول محمد من خلال تجهيزه لعدة طلائع وحملات كان من أبرزها وأكثرها جرأة على الروم حملة مؤته[4]، وهذه التجهيزات في عهد الرسول محمد ﷺ هي ما سار عليه الخليفة أبو بكر ثم عمر بن الخطاب من بعده.

ويبدو أن المؤرخين أمثال خليفة والبلاذري واليعقوبي والطبري وغيرهم، لم يكتبوا عن حصار حمص الأول، ربما لأنهم كانوا يرون أنها حملات استطلاعية لمعرفة كمائن العدو وتحصيناته، وأنه لم يكن فتحاً كاملاً، وإنما كان استيلاء ثم انسحاباً تطلبته ظروف المواجهة الحاسمة. كما أن تركيزهم كان منصباً على معركة اليرموك، ولأنها تمثل مفترق طرق بين المسلمين والروم، فقد "كانت قوات أبي بكر قوات غير نظامية عليها أن تقاتل جيوشاً نظامية لواحدة من أعرق الإمبراطوريات في فنون القتال، ولذلك كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق

---

١ ـ أَجْنَادَيْن: موضع بالشام من نواحي فلسطين، جرت فيه معركة بين الروم والمسلمين سنة ١٣هـ /٦٣٤م، الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٠٣.

٢ ـ فِحْلٌ: اسم موضع بالشام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم، الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٧.

٣ ـ اليرموك: وادي بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن، كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٣٤. الحميري، الروض المعطار، ص٦١٧.

٤ ـ مُؤْتَه: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، من مشارف الشام كانت فيها وقعة مشهورة بين المسلمين والروم. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٢٠.

تجمع القوات الرومانية، ثم إنهاك هذه القوات وإضعاف معنوياتها، وأخيراً إنزال ضربة قاصمة وسريعة بها"[1]، وهذا ما يؤكد أن حملات المسلمين في الشام قبل اليرموك كانت حملات استطلاعية كشفية لمعرفة قوة ومكان العدو. غير أن الواقدي على الرغم مما يؤخذ عليه في كتابه فتوح الشام قد امتاز في الحديث عن فتح حمص وحصارها الأول والثاني، واحتوى معلومات تتفق مع المصادر السالفة، وقد تنفرد عنها أحياناً.

١ ـ مجريات الفتح

لقد كانت الأرض التي توجهت إليها جيوش الفتح أول ما توجهت (حمص والشام)، أرضاً عربية، يتربع على سدة الحكم فيها روم أجانب، كما أن معظم سكان الشام عرب، يتكلمون العربية، ويمتون بصلات تجارة ونسب مع إخوانهم القادمين من شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فإن فتح حمص لم يكن الهدف منه "الاستيلاء عليها وجمع خيراتها ونهبها"[2]، بقدر ما كان لتحريرها من الرومان الذين احتلوها منذ زمن بعيد وبقيت مغتصبة تحت حكمهم حتى حررها المسلمون، وسطعت شمس الإسلام فوق ربوعها.

كان الرسول محمد ﷺ، قد راسل هرقل وهو مقيم في حمص[3]، منغمس في لذاته وشهواته، يدعوه للإسلام، فما كان من هرقل إلا أن جمع حاشيته وأخبرهم

---

١ ـ زكار (سهيل): تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل الإسلام وحتى القرن السابع الهجري، جامعة دمشق، ط٢، ١٤١١ـ١٤١٢هـ /١٩٩١ـ١٩٩٢م، ص١٠٥ـ١٠٦.

٢ ـ " فقد قيل إن الأنانية والجشع لم يلبثا أن وجدا طريقهما إلى نفوس العرب، واستولى على قلوبهم لما كان يفيض عليهم من النعمة ....." . حول هذا الموضوع، جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام، تحرير ستانفوردشو، وليم بولك، ترجمة إحسان عباس ومحمد نجم ومحمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ص١٩٧٩، ص٤٦. وأيضاً: فلوتن (فان): السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمه عن الفرنسية وعلق عليه حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م، ص٢٠.

٣ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٦٤٧. الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠١٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٣٤.

نبأ محمد ﷺ، قائلاً: "يا معشر الروم، إني عارض عليكم أموراً، فانظروا! قالوا: ما هي؟. قال تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل.... فهلُم فلنتبعه أو نعطيه الجزية في كل سنة، أو نصالحه فنعطيه أرض سورية، ويدعني وأرض الشام _ (وكانت أرض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض سورية وكان ما وراء الدرب عندهم الشأم .....)"، غير أنهم رفضوا آراء هرقل الذي أجابهم: "أما والله لترون أنكم ظفرتم، إذا امتنعتم منه في مدينتكم[1] (في حمص)". وقال: "وأنا شاخص منكم إلى أنطاكية، وممدكم بالخيول والرجال، وقد أمرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا[2].

ويبدو أن هرقل أراد من هذه الرواية أن يختبر مشاعر حاشيته، متظاهراً بقبوله الانقياد والخضوع للإسلام، فجاء ردهم موافقاً لرغبته فازداد طمأنينة، وحثهم على الاستعداد للقتال، بدليل تعبئته وقتاله للمسلمين في أكثر من معركة، وإرساله فيالق مجيشة من الجنود والعتاد، ورغبته في عدم تحطيم أسطورة قوته بعد انتصاره على الفرس.

هذا ويمكن تقسيم فتح حمص لدورين، لأن حمص جزء لا يتجزأ من بلاد الشام، وأنه بالحقبة ما بين ١٣ ـ١٦هـ / ٦٣٤ – ٦٣٧م، بدأ دور الفتوحات بوصول خالد بن الوليد من العراق[3]، وفي هذه المرحلة تقدمت الجيوش الرومية جنوباً، وكانت ثمة مقاومة من العرب والروم ممثلة كما ذكر سالفاً بأجنادين وفحل، ثم دمشق وحمص ثم اليرموك، كما أن الجيوش الإسلامية فتحت بعض المدن الرئيسية ومنها حمص فتحاً مؤقتاً، وكانت بمثابة استيلاء ثم انسحاب، ثم في المرحلة الثانية والممتدة من ١٦هـ /٦٣٧م وما بعدها كانت المقاومة الرومية قد انهارت تماماً، وانسحبت جيوش الرومان إلى شمال الشام لإعادة تحصين نفسها، ثم أعيد فتح حمص وحواضرها.

---

١ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٦٥١.

٢ ـ ابن حبيش، غزوات، ج١، ص١٦٠.

٣ ـ الشيباني، السير الكبير، ج١، ص٤٧.

فمتى فتحت حمص؟. ومن هم قادة الفتح؟. وما الخطط الحربية لفتح المدينة؟. وهل كان فتحها عنوة أم صلحاً؟. ولماذا نقضت حمص الصلح الأول؟. وما هي المعاهدات التي كانت بين الطرفين؟. ثم ما موقف السكان المحليين من فتح المدينة؟. وكيف عامل الفاتحون سكانها؟. وكيف كانت ردة فعل الفئات المختلفة القاطنة في حمص؟. هل أقاموا فيها؟. أم غادروها مع هرقل وقادته؟. وهل حافظ من بقي منهم على مسيحيتهم؟. أم دخل قسم منهم في الإسلام؟. وما موقف الروم تجاه فتح حمص وغيرها من المدن الشامية؟. هل حاولوا اغتنام الفرص للإغارة على الشام عند الفتن والاضطرابات التي شهدتها الدولة الإسلامية آنذاك؟. وما طبيعة تكوين الجيوش في تلك الحقبة؟. وما عتادهم وعدادهم؟.

إن الإجابة على هذه الأسئلة تضع القارئ أمام الجهود الحربية التي بذلها الفاتحون مع ما اتسموا به من سماحة وعدالة ورحمة، تتمثل في جعل القتال آخر خياراتهم، وذلك عبر عرض الإسلام على السكان، أو الجزية مقابل حمايتهم وإن لم يرضوا الإسلام ديناً، فالقتال هو الخيار الأخير.

أ. حصار حمص الأول "دور الاستيلاء":

فبعد أجنادين وفحل١٣هـ/ ٦٣٤م سار أبو عبيدة بن الجراح على طريق البقاع واللبوة فلما وصل إلى هناك بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى حمص[1]. قائلاً

---

١ ـ وكان أبو بكر قد استدعى خالداً من العراق، قائلاً: "إن انصرف بثلاثة آلاف فارس فامدد إخوانك بالشام، والعجل العجل"قطع خالد البادية فسلك طريقاً تختلف الكتب في وصفها الجغرافي كما تختلف أراء المؤرخين في تعيين الزمن الذي استغرقته تلك المغامرة، خاصة ان الجمل يستطيع قطع مسافة ٣٠كم في اليوم الواحد. ميكيل (أندريه) الإسلام وحضارته، ترجمة زيتي عبد العزيز، مراجعة كمال الحناوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص٣٤. وتجدر الإشارة إلى أن خط سير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام يحتاج إلى مزيد من البحث لكشف الغموض الذي يكتنفه، فقد ذكر الأزدي أن خالد بن الوليد كان يستعين بأدلاء ونصحاء من أبناء المنطقة لخبرتهم بتجارتها وطرقها، فقد أشار عليه محرز بن حريش: "إذا بلغت مخضضاً فاجعل كوكب شمس الصبح على جانبك الأيمن، ثم أمه حتى يصبح، فجرب ذلك فوجده كما قال، ثم أن خالداً أخذ السماوة حتى انتهى إلى قراقر، وقد أشار عليه

له: "يا أبا سليمان انهض على بركة الله، ونازل القوم، وشنّ الغارة على أرض العواصم وقنسرين، وأنا أسير إلى بعلبك[1] لعل الله يسهل علينا فتحها". ثم ودعه وسار خالد بجيشه إلى حمص، ليمنع المدد عن أهل حمص[2]، وتوجه أبو عبيدة إلى بعلبك، إذ ورد بطريق جوسيه ومعه الهدايا والتحف، وصالح المسلمين سنة كاملة، وصالحوهم على أربعة آلاف درهم وخمسين ثوباً من الديباج[3]، فقد كانت قطع المنسوجات ذات قيمة سياسية فذكرت في المعاهدات وذلك لأنها من السلع الثمينة.

ثم التحق أبو عبيدة بجيش خالد المتجه إلى حمص فنزلها في شوال سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، وكان عليها والياً (بطريق) من قبل هرقل، اسمه (لقيطاً)، وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين رضي الله عنهم، فاجتمع الحمصيون في كنيستهم العظمى[4]، وأشار كبيرهم على أن يصالحوا المسلمين صلحاً مؤقتاً حتى يكاتبوا

رافع بن عمرو الطائي وكان دليلاً أن يعطيه ٢٠ جملاً عظاماً سماناً فأظمأها كثيراً حتى إذا جهدت من العطش سقاهن حتى إذا أرواهن قطع مشافرهن (شفة كل جمل) ثم ربط أفواههن لئلا تجتّر، ثم تابع سيره، فكان كلما نزل منزلاً نحر أربعاً من تلك الجزور، وأخرج ما في بطونها من الماء فسقى الخيول وشرب الناس مما تزودوا، حتى وجدوا عين عوسج فأخذوا حاجتهم من الماء وساروا حتى مروا بتدمر فصالح أهلها خالد بن الوليد ثم حوارين. الأزدي (محمد بن عبد الله): تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٩م، ص٧٣ . ٧٩. قارن البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٣، ص٢٩٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٦، ص٢٦١حتي، تاريخ العرب، ص٢٠٥. علي، خطط، ج١، ص١١٤. زكار، تاريخ العرب، ص١٠٧. ابن قدامه، الخراج، ص٢٨٦ . ٢٨٧. رستم (أسد): الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم، دار المكشوف بيروت، ط١، ١٩٥٥م، ج١، ص٢٤١ .- علي (أحمد علي إسماعيل): تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٩٩م، مج٢، ج١، ص٥٠١ .٥١٥. وانظر، خارطة مرفقة، ملحق رقم (٧).

١ ـ مدينة بالشام، بينها وبين دمشق في جهة الشرق مرحلتان، وهي حصينة في سفح جبل وعليها سور حصين بالحجارة، فتحت صلحاً زمن عمر بن الخطاب، الحميري، الروض المعطار، ص١٠٩.

٢ ـ خليفة، تاريخ، ص٦٣. البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٣، ص٣٩٣.

٣ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ، ص٩٢. خليفة، تاريخ، ص٦٩.

٤ ـ لعلها كنيسة يوحنا المعمدان أو كنيسة أم الزنار، وذلك لوجود كنيستين أثناء الفتح

هرقل ليرسل لهم جيشاً عرمرماً، فأظهروا صلح المسلمين، وصالحهم أبو عبيدة على عشرة آلاف دينار، ومائتي ثوب من الديباج، وعقد الصلح مع القوم سنة كاملة أولها ذو القعدة وأخرها شوال سنة أربع عشرة من الهجرة[1].

وأبرم الصلح وخرجت السوقة من حمص إلى عسكر المسلمين، فباعوا واشتروا ورأى أهل حمص سماحة العرب في بيعهم وشرائهم وربحوا منهم ربحاً وافياً[2]. وبذلك فقد اطمأنت العرب المتنصرة للمسلمين ومارسوا معهم ضروب التجارة.

وبعد ذلك وجه أبو عبيدة خالد بن الوليد بعد أن ضم إليه أربعة آلاف فارس من لخم، وجذام، وطيء، ونبهان، وكهلان، وستس، وخولان، وأمره بالتوجه إلى حواضر حمص، وأن يرسل العيون ويرى إن كان لهم تأييد أو نجدة من قوتهم، فسار خالد إلى معرة النعمان، ثم شيزر على نهر العاصي، ودعا مصعب بن محارب اليشكري[3] وضم إليه خمسمائة فارس، وأمره أن يشن الغارة على العواصم[4]، وقنسرين، وتابع خالد سيره إلى كفر طاب، ودير سمعان، وكان يُغير على ما يواجه من قرى، واستطاع أن يحقق انتصارات أولية، وعاد ببشارة النصر لأبي عبيدة، وكذلك الحال مع اليشكري[5].

وكان من بنود الصلح مع حواضر حمص أن فرض أبو عبيدة على كل واحد منهم أربعة دنانير وذلك بناء على مشورة من الخليفة عمر بن الخطاب، نظراً لما أبدوه من الأسف قائلين: "أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم، وكانت أخباركم تأتينا، وما ظننا أنكم تبلغون إلينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم،

الإسلامي، الريماوي، مدينة حمص، ص٢٣٢.

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٣. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٠.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٤.

٣ ـ مصعب بن محارب اليشكري: لم احصل على تعريف له.

٤ ـ العواصم: حصون موانع، وتمتد بين حلب وأنطاكية، وقصبتها أنطاكية، ومنها ثغور المصيصة، وطرسوس وغيرها. الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص١٦٥.

٥ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٤.

فأخذونا أسرى إليكم". وكان عددهم زهاء أربعمائة[1].

وفي هذا دلالة واضحة على نشاط البريد العسكري للجبهات العسكرية في مختلف الميادين إلى مركز التنسيق في مكة، حيث يقيم القائد الأعلى الخليفة عمر بن الخطاب، الذي كان يتابع الأخبار باستمرار.

فكتب أبو عبيدة للخليفة عمر بن الخطاب بذلك وكتب أسماءهم (ربما في ديوان أهل الذمة)، وأمرهم بالرجوع إلى حواضر حمص، وكانت سياسة أبو عبيدة ذات بعدين: الأول، انه أراد أن يعيد هؤلاء إلى أوطانهم فيزرعوا الأرض ويؤدوا ما عليهم من خراج وجزية. والثاني، أن هؤلاء عندما يعودون إلى حواضرهم سيخبرون من حولهم بحسن معاملة المسلمين، ويحثونهم على طلب الصلح دون قتال. "وهذا ما حصل من قبل مع أهل قنسرين"[2]، الذين آثروا الصلح على القتال، قائلين: "قد بلغنا أنهم أصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا أكثر البلاد بالصلح والعدل، ومن قاتلهم قاتلوه، واستعبدوا أهله وأولاده، ومن دخل تحت طاعتهم أقروه في بلده، وكان آمناً من سطوتهم، والرأي عندنا أن نصالح القوم ونكون آمنين على أنفسنا وأموالنا"، فوافق البطريق أن يعقد الصلح مع المسلمين سنة كاملة إلى أن يأتيه مدد جيوش هرقل[3].

ويبدو أن هذا الصلح كان بمثابة هدنة مؤقتة أراد من خلالها لوقا أن يحمي نفسه وأهل قنسرين حتى يمده هرقل بالمساعدات العسكرية التي تمكنه من نقض الصلح.

فكتب لهم أبو عبيدة كتاباً بموادعة الحرب سنة كاملة، أولها مستهل شهر

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٤-٩٥.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٥.

٣ ـ فأرسل لوقا كتاباً إلى أبي عبيدة بهذا الاتفاق مع أحد رسله واسمه (اصطخر) فسار حتى وصل إلى حمص فرأى القائد أبا عبيدة يصلي بالمسلين صلاة العصر" منتظمين في صفوفهم"، فوقف اصطخر ينظر ما يفعلون ويعجب لأدائهم وعندما مَثُل بين يدي أبي عبيدة همّ بالسجود له، فمنعه من ذلك قائلاً له نحن عبيد الله عز وجل، ثم أعطى أبا عبيدة كتاب لوقا، وكان مما احتواه إضافة لما سبق " يا معشر العرب: إن بلدنا منيع كثير العدد والرجال، فما تأتونا من قبله، ولو أقمتم علينا مائة سنة....." . فكان أن أشار خالد بن الوليد على أبي عبيدة بأن هذه حيلة، الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٥.

ذي القعدة سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، وكان صلح المسلمين لأهل العواصم وقنسرين على أربعة آلاف دينار، ومائة أوقية من الفضة، وألف ثوب من متاع حلب، وألف وسق[١] من طعام[٢]. إن شروط الصلح الآنفة تعني أن المسلمين لم يستقروا في المناطق المفتوحة لأن ظروف الفتح لم تكتمل بعد ولذلك فقد اكتفوا بالأمتعة العينية. ولابد أن أبا عبيدة أثناء إقامته في حمص كان يغير يميناً وشمالاً يفتح البلاد ويتفقد الأحوال إلى أن وصل كتاب الخليفة عمر بن الخطاب يحثه على مواصلة الفتح لبقية المناطق التابعة لحمص. فقرر أبو عبيدة المسير إلى حلب، فعقد راية لسهل بن عمرو[٣]، وراية لمصعب بن محارب اليشكري، وأمر عياض بن غنم[٤] أن يسير على مقدمتهم، وأتبعه خالد بن الوليد.

وسار أبو عبيدة إلى أن وصل حماه فصالحه أهلها ثم واصل سيره إلى شيزر، وصالح أهلها، عند ذلك وصلت أخبار انتفاض قنسرين قبل نهاية العام المتفق عليه بالصلح، ونجدة هرقل لهم بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني[٥]، ومن معه من العرب

---

١ ـ الوسق هو حمل البعير، وهو يساوي ٦٠صاعاً أي قرابة ٢٥٢.٣٤٥٦لتر أو ١٩٤.٣كغم من القمح، والألف وسق تعادل ١٩٤.٣٠٠كغ من القمح تقريباً هنتس، المكاييل والأوزان، ص٧٩.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٦-٩٧.

٣ ـ سهل بن عمرو: هو سهل بن عمرو بن عبد شمس العامري، قيل أسلم بالفتح، وسكن المدينة، وله دار، وقيل مات في خلافة أبي بكر، أو عمر. ابن حجر(الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني): (ت ٨٢٥هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، راجع نصوصه وضبط أعلامه وخرج أحاديثه وفهرس أعلامه على حروف المعجم صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م، ج٢ ص٤٠٩.

٤ ـ عياض بن غنم: له صحبة، شهد بدراً مع النبي، وهاجر الهجرتين، وشهد فتوح الشام، واستخلفه أبو عبيدة بن الجراح عند وفاته، وشارك في فتح الجزيرة، وكان أميراً في اليرموك على بعض الكراديس، وشهد فتح دمشق. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٧، ص٢٦٤-٢٦٨.

٥ ـ جبلة بن الأيهم الغساني: أبو المنذر،ملك آل جفنة بالشام، أسلم وأهدى النبيﷺ هدية، فلما كان زمن عمر ارتد ولحق بالروم، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤م، ج٣، ص٥٣٢ .

المتنصّرة، ومعه عشرة آلاف فارس، فتمكن خالد بن الوليد من الانتصار عليهم[1].

عندها كان رأي المسلمين بالعودة إلى ما تم فتحه، بعد انقضاء مدة الصلح، فوجه أبو عبيدة بعد انتصاره على هربيس في بعلبك خالد بن الوليد إلى حمص ونزل هو بعلبك، بعد أن نقضوا العهد والصلح مع المسلمين[2].

ثم لحق أبو عبيدة إلى حمص، فلما اقترب منها، في موضع يقال له الزَّرَّاعَة[3] وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي[4]، وضم إليه خمسة آلاف فارس من المسلمين حتى وصل إلى حمص فاجتمع مع خالد بن الوليد.

ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الأزور[5] في خمسة آلاف فارس، وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدي[6]، وقدم أبو عبيدة ببقية الجيش، فلما أشرف أبو عبيدة على حمص قال: "اللهم عجّل علينا فتحها، واخذل من فيها من المشركين". ونزل أبو عبيدة على النهر المقلوب ـ العاصي ـ ثم كتب إلى أهل حمص وبطريقها الجديد هربيس كتاباً يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الشام وقائد جيوشه: أما بعد، فإن الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يغرنكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة رجالكم، ونحن ندعوكم إلى دين ارتضاه لنا ربنا عز وجل، فإن أجبتم إلى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالاً منا يعلمونكم أمر دينكم، وما فرض الله تعالى عليكم، وإن أبيتم الإسلام والجزية فهلمّوا إلى الحرب والقتال حتى

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٩.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٠.

٣ ـ إحدى قرى حمص، وقيل اسم لعدة مواضع بالشام. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٣٥.

٤ ـ ميسرة بن مسروق العبسي: أحد الفرسان المشهورين، شهد اليرموك وهو شيخ مسن، كان ذا إصلاح، وكان له غزوات بالروم في سنة ٢٦هـ/ ٦٤٦م. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦١، ص٣٢٠.

٥ ـ ضرار بن الأزور: أحد الأبطال له صحبة، وكان على ميسرة خالد يوم بصرى. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص٣١٥.

٦ ـ عمرو بن معد يكرب الزبيدي: له وفادة على رسول الله، وكان فارساً شجاعاً، شهد فتوح الشام، ومنها اليرموك، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٦، ص٣٦٤.

يحكم الله وهو خير الحاكمين". ثم طوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين، وكان ذلك الرجل يترجم بالعربية والرومية وقال له، انطلق إلى حمص وائتنا بالجواب، فأخذ المعاهد الكتاب وسار حتى وصل إلى السور فهمَّ أهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة. فقال لهم بالرومية: يا قوم امسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب. فدلوا له حبلاً فربط وسطه به ورفعوه إليهم وأتوا به إلى بطريقهم، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب. فقال له البطريق أرجعت عن دينك إلى دين هؤلاء العرب؟. قال: لا. ولكن في ذمتهم وعهدتهم أنا وأولادي وأهلي ومالي وما رأينا من القوم إلا خيراً والصواب عندي أن لا تقاتلوهم، فإن القوم أولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم أفضل من الحياة، وقد أقسموا لا يبرحون من مدينتكم حتى تسلموها إليهم أو يفتحها الله على أيديهم، وحق ديني أنكم أحب إلي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم، لكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا[1].

رفض هربيس مضمون الكتاب واعداً مهدداً "فإن سورنا شديد، وأبوابنا حديد، وحربنا عتيد"[2]. معتمداً على ما وعده به هرقل من نجدة عسكرية، وعلى حصانة مدينة حمص.

وعندما وصل أبو عبيدة الرد على كتابه، أعلن الحرب وقسم الجيش بما يتوافق وأبواب المدينة الأربع آنذاك على النحو التالي: باب الجبل وعليه المسيب بن نجيبة الفزاري، وباب الرستن، وعليه المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص، وباب الشام وعليه يزيد بن أبي سفيان، وأخيراً باب الصغير ورابط عليه أبو عبيدة وخالد بن الوليد[3].

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٢.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٣. الإدلبي (أحمد إبراهيم)، فتوح حمص والشام، قصة قومية تاريخية، وقصص أخرى، حمص، المطبعة الوطنية، ص١٠ـ١٢.

٣ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٣. إذاً كان مركز القيادة على الباب الصغير، ويقع غرب الباب الغربي للجامع النوري الكبير، فالحمام الموجود بالقرب منه لفترة وجيزة كان يعرف بحمام الصغير، والباب الذي يليه باب الجبل، ويعرف الآن باسم باب السباع، فلم يبق باباً يؤدي إلى

وحاصرهم المسلمون من جميع الجهات، وكان الروم يستعينون بفتحات السهام عبر الأبراج لرمي المسلين ولحماية أنفسهم داخلها، واستمر هذا اليوم والمسلمون يرمون النبال ويتصدون للسهام بالحجف.

وفي اليوم الثاني استخدم خالد بعض خططه العسكرية بأن جمع عسكر المسلمين وأمرهم أن يتقلدوا سيوفهم ويزحفوا إلى سور حمص، ويضربوا السور بسيوفهم، ويتلقوا السهام بالحجف، وكان عددهم خمسة آلاف فارس مسلم[1]. وكان ذلك مما شدد الحصار على الرومان، وعندما طال الحصار بعث هربيس بكتاب لأبي عبيدة يوحي برغبته بالصلح، فوافق أبو عبيدة على الصلح، فأخرج أهل حمص مما كانوا ادخروه من الزاد والعلوفة شيئاً عظيماً له ولعسكره ما يكفيهم خمسة أيام، واشترى المسلمون من أهل حمص الزاد والعلوفة ما يساوي دينارين بعشرين ديناراً ، غير ما أخذوه صلحاً فكان ذلك مما أفرح سكان حمص[2].

ويبدو من هذه الرواية أن نجدة هرقل لهربيس قد تأخرت وأن الحصار كان محكماً وقد طال، كما أن هربيس لاحظ وجود عبقرية عسكرية للمسلمين وإصرارهم على اقتحام السور، وربما أنه أراد أيضاً أن يجعل من هذا الصلح هدنة مؤقتة كسابقتها، كما أن أبا عبيدة وافق واستفاد من شروط الصلح لحاجة الجند إلى المؤونة، والعلوفة، ويلاحظ أن التجارة عنصر محايد في فتح حمص، وقد رأى أهل حمص ربحاً جيداً من المسلمين، وكان ذلك من الأمور التي جعلت بعضهم يميل إلى الإسلام.

وبالرغم من ورود التصحيف في عبارة ما يساوي عشرين ديناراً بدينارين، والصواب ما يساوي دينارين بعشرين ديناراً، وهذا الأخير هو الذي يفرح سكان

الرستن مباشرة سوى الباب الذي يعرف الآن بباب تدمر، وعلى هذا يكون باب الرستن وباب الشام، بطبيعة الحال هو باب الدريب فهو الباب الرابع المتبقي والذي يؤدي إلى الشام. الشاطر، حصار حمص، ص١١٦.

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٣.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٥.

حمص وليس الأول، كما إن شروط الصلح الآنفة تعني أيضاً ـ وكما سلف ـ عدم استقرار المسلمين في حمص، واكتفاءهم بالأشياء العينية.

وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون ينقلون لهم الأخبار، فأشاعوا خبر فتح المسلمين لحمص صلحاً، واتجهوا شمالاً لإخبار هرقل، وكانت الجواسيس قرابة الأربعين رجلاً فدخل ثلاثة منهم شيزر، فأشاعوا الخبر فيها[1].

ثم نقض أهل حمص الصلح من جديد فخطب أبو عبيدة قائلاً: قد خرج أهل حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ما عاهدوكم عليه، فارجعوا بنا إليهم، وقد بعث هرقل بمدد كبير لأهل حمص[2].

غير أن الروم عادوا وتحصنوا داخل أسوارهم، فقال خالد بن الوليد: رضي الله عنه لأبي عبيدة، أيها الأمير، قد رأيت من الرأي أننا نكشف للقوم غداً وندع لهم

---

١ ـ ثم تابع الجيش الإسلامي طريقه إلى الرستن وتم فتحها، ثم توجه خالد بجيشه إلى حماة وكان أهل حماة في صلح مع المسلمين. كما ذكرت. وكذلك أهل شيزر، غير أن هرقل أمد شيزر بقائد جديد، وأعلن عصيانه ونقضه لما قطعه أهل شيزر من صلح مع المسلمين، عند ذلك تجمع جيش المسلمين لقتالهم " جيش خالد بن الوليد" و" جيش يزيد بن أبي سفيان"، "وجيش أبي عبيدة فكتب أبو عبيدة رضي الله عنه

إلى أهل شيزر كتاباً يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، يا أهل شيزر، فإن حصنكم ليس بأمنع من حصن بعلبك ولا من الرستن، ولا رجالكم أشجع فإذا قرأتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفنوني فيكون وبالاً عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام، وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وبعثه إليهم فلما وصل الكتاب إليهم أعطوه بطريقهم، فلما فهم ما فيه قال: ما تقولون يا أهل شيزر فيما ذكرت العرب؟. فقالوا: صدقت العرب أيها البطريق فإن حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى، وأنت أعلم بشدة أهل حمص وحدّة شجاعتهم، وقد صالحوا العرب، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فإن عصيت هؤلاء العرب فإنك معول على هلاكنا وخراب مدينتنا". عند ذلك اختلف أهل شيزر الراغبون بالاستسلام مع البطريق الرافض، ودارت بينهم فتنة أهلية داخلية انتهت بقتل البطريق وفتح المدينة للمسلمين.

الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٥.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٩.

سوائمنا وإبلنا فإذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم. وتواعد المسلمون على أن ينكشفوا بين أيدي الروم وان يتركوا سوائمهم، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الأبواب وزحفوا يريدون القتال، وأروهم التقصير والخوف وأطمعوهم في أنفسهم وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار وانبسطت الشمس وطابت الحرب وطمعت الروم في المسلمين لما ظهر من تقصيرهم فشد الروم بالحملة عليهم، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمهم". عند ذلك التف المسلمون عليهم وحاصروهم من كل جانب حتى قتل أكثرهم واستسلمت المدينة، وطلب أهلها الصلح مقابل تسليم المدينة للمسلمين، وأن يكونوا من أهل الذمة[1]، وقال أبو عبيدة: "لست أدخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين هرقل"، ثم بعث أبو عبيدة إلى حبيب بن مسلمة، وكان استعمله على الخراج فقال: ولا تجيبن أحداً ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك، فلما أراد أن يشخص دعا حبيب فقال: أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم فإنه لا ينبغي لنا إذ لم نمنعهم أن

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٣٤. وتتلخص عبقرية خالد بن الوليد كقائد في خبرته التامة بكل أساليب القتال وسيطرته عليها على تنوعها واختلافها، فقد فهم أهمية الاستطلاع واستعمال الكمائن وحسن حرب الكر والفر كما في معركة أحد، وحرب الصفوف في الخندق، وقيادة التشكيل الخماسي للجيش في حروب الردة، وحرب الكراديس في اليرموك. كما أنه حارب في عمليات حربية متنوعة زادته خبرة على خبرة، فقد اشترك في السرايا والمغازي في عهد الرسول، وفي حروب الردة وفي الفتوح في الميدان العراقي، والشامي، وكانت طبيعة العدو تختلف في كل من هذه الحروب، وكذلك أساليب القتال. وكذلك حارب في أرجاء الجزيرة العربية كالحجاز واليمن ونجد، وفي العراق، والشام، فيكون قد بلى وخبر الحرب في كل هذه المناطق الجغرافية التي تختلف الواحدة فيها عن الأخرى، وكانت هذه معينة له على التعرف إلى الرقعة الجغرافية بكاملها وساعده هذا في زحفه الخاطف من الحيرة إلى بصرى. شهيد (عرفان): أسرار النصر العربي في فتوح الشام، معركة اليرموك، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، ص١٤٣.

نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم، نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم لأننا نحميكم، فإن أظفرنا الله بعدونا عدنا إليكم. فأجاب أهل البلد ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم"[1]، ولم يدخل المسلمون المدينة إلا بعد اليرموك،وذلك بعد عدة مشاورات بين القائد أبو عبيدة ونصحائه حيث أشار أغلبهم على عدم دخول حمص، ومن ذلك شرحبيل بن حسنة الذي قال: "إني لا أرى أن تدخل ذراري المسلمين مع أهل حمص فهؤلاء على دين عدونا، وقد ينقلبون علينا ويأسرون ذرارينا ويتقربون بها إلى عدونا"، وميسرة بن مسروق العبسي الذي قال: "إنا لسنا بأصحاب القلاع ولا الحصون ولا المدائن، وإنما نحن أصحاب البدو البلد القفر فأخرجنا من بلاد الروم ومدائنها وحصونها وقلاعها"[2]. وعندها جمع هرقل ستمائة ألف فارس وأرسلهم لاقتفاء أثر أبي عبيدة على حمص، فلم يجده فسار الجيش إلى الجابية[3]، ثم اليرموك[4].

وبذلك فإن ما سلف كان بمثابة تحركات استطلاعية حققت انتصارات كثيرة للمسلمين، وكشفت لهم عن أحوال تلك الحواضر. فكان حصار حمص الأول بمثابة استيلاء على حمص وحواضرها، ثم الانسحاب لما تتطلبه الظروف العسكرية.

---

١ ـ الأزدي، فتوح الشام، ص١٥٦. وإذا أودع المسلمون قوماً من المشركين فليس يحلّ لهم أن يأخذوا شيئاً من أموالهم إلا بطيب أنفسهم، للعهد الذي جرى بيننا وبينهم، لأن في الأخذ بغير طيب أنفسهم معنى الغدر، وترك الوفاء بالعهد. الشيباني، السير الكبير، ج١، ص١٣٣.

٢ ـ الأزدي، فتوح الشام، ص١٥٤ـ١٥٥. البستاني، دائرة المعارف، (وهو قاموس عام لكل فن ومطلب)، حرب بن أمية إلى دمشق، دار المعرفة، بيروت، ج٧، ص٢١٧.

٣ ـ الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان في شمالي حوران، وإليها ينسب باب الجابية بدمشق، الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٩١.

٤ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٣٧. الأزدي، فتوح الشام، ص٨٤ـ٩٢. الشاطر (محمد): حصار حمص والفتح العربي الإسلامي للمدينة، دراسة تاريخية نقدية، مجلة البحث التاريخي، العدد٥، ١٩٩٠م، ص١١١ـ١٢٩.

ب- حصار حمص الثاني وفتحها ١٦هـ/ ٦٣٧م:

أما بالنسبة للقاء الحاسم مع الروم، فقد كانت له مقدمات؟. فبوفاة الرسول محمد ﷺ واجهت الدولة الإسلامية ما يعرف بحركة الردة[١]، واستطاع الخليفة أبو بكر أن يقمع هذه الحركة من جذورها بفضل ما أوتي من حكمة، وما توفر له من قادة أكفاء، ثم وجه أبو بكر قادته لفتح بلاد الشام وكانوا على النحو التالي: القائد يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، والقائد عمرو بن العاص إلى فلسطين، والقائد شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، والقائد أبو عبيدة بن الجراح إلى حمص[٢].

واستطاع هؤلاء القادة أن يحققوا انتصارات أولية مؤقتة، فكأن بداية حركتهم كانت بمثابة حركة كشفية استطلاعية لمعرفة مراكز تجمع العدو، ولاستنهاضهم على المواجهة، فعندما علم هرقل بهذه الجيوش أخذ يَعد العدة ويجهز الجيوش لقتال المسلمين، وانتهى الأمر بلقاء حاسم في معركة اليرموك[٣] ١٥هـ/٦٣٦م حيث استطاع الجيش الإسلامي بقادته الأربع أن يحققوا انتصاراً حاسماً على الروم، ومن ثم تابع هؤلاء القادة فتوح الشام، وليس هذا مجالاً للخوض في فتوح الشام فقد خلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردن شرحبيل، وعلى فلسطين عمرو بن العاص، ثم سار قاصداً حمص.

ويبدو أن أبا عبيدة قد بعث بحملة استطلاعية كشفية قبل أن يصل إلى حمص بقيادة خالد بن الوليد، ثم لحق به[٤]، على أثر هروب جيش هرقل من دمشق نحو حمص عن طريق قارا[٥].

---

١ ـ خماش (نجدة): الردة وموقف أبي بكر منها، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع٥، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص١٥١ ـ ١٦٣.

٢ ـ ابن حبيش، غزوات، مج١، ص١٧٥.

٣ ـ البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٣، ص٢٩٩. شاكر (محمود): موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٢م، ص٦٨.

٤ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٦.

٥ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٦.

ولكن ما موقف هرقل من هذه الأحداث؟. هل سيقف مكتوف الأيدي إزاء الهزائم المتلاحقة لجيوشه في اليرموك ودمشق ثم هي على مشارف حمص؟. وما موقفه من انتصار المسلمين على توذرّا البطريق في مرج الروم[1] ١٥هـ/٦٣٦م.

كانت ردة فعل هرقل على هذه الهزيمة بأن شجع أمير حمص على التحصّن وبين له نقطة ضعف المسلمين، فقال: "إنه بلغني أن طعامهم لحوم الإبل، وشرابهم ألبانها، وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في يوم بارد، فإنه لا يبق للصيف منهم أحد، هذا جُل طعامه وشرابه"[2].

ويبدو أن هرقل كان يستعين بالعوامل الطبيعية في القتال إذ أنه أوعز إلى قادته بقتال المسلمين شتاء، لأنه يرى عدم تحمل المسلمين للبرد. "فكانوا يعادون المسلمين ويراوحونهم في كل يوم بارد، ولقي المسلمون بها برداً شديداً"[3]. غير أن المسلمين ثبتوا وصبروا.

وبعد مرور الشتاء كان موقف أهل حمص متذبذباً تجاه المسلمين، أيعاهدون المسلمين بميثاق؟ أم تؤخذ حمص عنوة؟. ومع قدوم الصيف ولما رأوه من بأس المسلمين ومنعتهم طلب أهل حمص الصلح، فأجابهم المسلمون وقبلوا منهم على أنصاف دورهم، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم، فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام، على كل جريب[4] أبداً أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر ماله، إن زاد ماله زيد عليه، وإن نقص نُقص[5]. وهنا لا بد أن عدداً من أهل حمص قد لحقوا بهرقل وتركوا منازلهم، فسكنها المسلمون كما

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٩٩. حمودي (منذر): تحرير حمص من السيطرة البيزنطية، ندوة حمص الأثرية، ١٩٨٤م، ص٧٥ ـ ٩٧. الريماوي، مدينة حمص عند الفتح، ص٢٣١ ـ ٢٤٤.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم الملوك، ج٣، ص٥٩٩.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم الملوك، ج٣، ص٥٩٩.

٤ ـ الجريب، الجريب بوصفه مكيالاً يساوي ٢٩.٥ لتر، أو ٢٢.٧١٥ كغم قمح. هنتس، المكاييل والأوزان، ص٦١. أما وصفه كمقياس للأرض فهو يساوي ١٥٩٢م٢ هنتس، المكاييل، ص٩٦.

٥ ـ الطبري، تاريخ الأمم الملوك، ج٣، ص٦٠٠.

حدث من قبل في دمشق[1].

وبعد ذلك نظم أبو عبيدة أمور حمص بأن بعث السمط بن الأسود في بني معاوية، والأشعث بن مثناس في السكون، والمقداد في بلى، وبلالاً وخالداً في الجيش، والصباح بن شتير وذهيل بن عطية، وذا شمستان، فكانوا في قصبتها وأقام في عسكره وأرسل إلى عمر يخبره بالفتح، وبعث بالأخماس مع عبد الله بن مسعود. وقد وفده وأخبره خبر هرقل، فكتب الخليفة عمر بن الخطاب كتاباً لأبي عبيدة " أن أقم في مدينتك (حمص) وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام"[2] إلى الإسلام وإلى مقاتلة الروم. وقيل صالحوهم على مائة ألف وسبعين ألف دينار[3]، وقيل صالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم، وسور مدينتهم وأرحائهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من أقام منهم[4].

إن شروط الصلح مع الحمصيين هذه المرة تختلف، فقد أصبح الفتح أمراً واقعاً، وتطلب استقرار المسلمين في حمص، لذلك كان من أبرز شروطه تأمين المسكن للمسلمين.

وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنّسرين فهزم الروم حينها عام ١٥هـ وأرسل عرب الحاضر إلى خالد بن الوليد أنهم مكرهون على القتال فقبل منهم وتركهم وكان حاضر قنسرين لتنوخ، وبعد تحصّن أهل قنسرين، قال خالد: "إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم الله إلينا". وعند ذلك طلب أهل قنسرين الصلح على صلح أهل حمص، فأبى إلا خراب المدينة فخربها، فخاف هرقل مما بلغه خاصة بعد مقتل ميناس قائده في قنسرين، وبعدما عقد خالد لأهل الحاضر ترك قنسرين..... ثم تتابع نبأ فتح الجزيرة وما والاها وعندما بلغت

---

١ ـ لكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل، وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلهم فنزلها المسلمون. البلاذري، فتوح، ص١٢٩.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم الملوك، ج٣، ص٦٠١.

٣ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٦. خليفة، تاريخ، ص٧٠.

٤ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٦. خليفة، تاريخ، ص٧٠.

هرقل هذه الأنباء خرج إلى القسطنطينية مردداً: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلا خائفاً[1]. وكان فتح حمص صلحاً سنة ١٦هـ/٥٩٥ م[2].

وهذا نداء من هرقل الذي أحس بعظم الهزيمة، وأنه استنفذ طاقته العسكرية لقتال المسلمين غير أن غروره باء بالفشل، فهرب وهو متيقن أنه لن يستطع هزيمة المسلمين.

ثم سار أبو عبيدة يريد حلب فبلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا، فأخرج إليهم السمط بن الأسود الكندي، فحصرهم ثم فتحها[3]. وتابع أبو عبيدة مسيره ومعه عياض بن غنم ففتح حلب وعقد معها الصلح على صلح حمص، ثم تابع مسيره إلى أنطاكية لأنها واحدة من مراكز إقامة هرقل، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء، ثم لما ولي معاوية كتب إليه عمر بمثل ذلك ثم أن عثمان كتب إليه يأمره أن يلزمها قوماً وأن يقطع القطائع[4] ففعل.

وفي سنة ١٧هـ/٦٣٨م تكاتب الروم لقتال أبي عبيدة في حمص وقيل أن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص[5]، على إثر إيذان عمر للجند بالانسياح، فأعد أبو عبيدة لذلك خطة عسكرية فضمّ إليه مسالحه، وعسكروا

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم الملوك، ج٣، ص٦٠١ـ ٦٠٣. ابن حبيش، غزوات، مج١، ص٢٢٥. ابن العديم، زبدة الحلب،ج١، ص٤٥. ابن بطريق (أفتيشيوس المكنى سعيد): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، كتبه إلى أخيه عيسى في معرفة التواريخ الكلية، من عهد آدم إلى سني الهجرة الإسلامية، ويليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م، ص١٦.

٢ ـ اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.

٣ ـ البلاذري، فتوح، ص١٥١.

٤ ـ القطائع: جمع القطيعة، وهو ما أقطعه الخلفاء لقوم فعمروه، وتعرف بقطائع الموالي. الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٣٧١.

٥ ـ الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج٤، ص٥١. ابن حبيش، غزوات، مج٢، ص٦٧٣.

بفناء مدينة حمص، واقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح، ثم تحصن المسلمون، وكتب أبو عبيدة لعمر بالغوث، فكتب عمر إلى سعد بن مالك بالكوفة" أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به، فخرج ومعه أربعة ألاف فارس"[1].

وكذلك طلب من قادته الآخرين في العراق بإمداد أبي عبيدة، فخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة لنجدته، وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة، يريد حمص حتى نزل الجابية، ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم، وهم معهم مقيمون عن حديث مَنْ بالجزيرة منهم بأن الجنود قد قدمت من الكوفة، ولم يدروا: الجزيرة يريدون أم حمص[2]، فتفرقوا إلى بلدانهم، وخلّوا الروم، وانتصر المسلمون وكتبوا بالفتح لعمر في الجابية[3].

وبعد أن صالح أبو عبيدة أهل حمص تابع فتح حواضر حمص، فاستخلف على حمص عبادة بن الصامت الأنصاري، ومضى نحو حماة فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية على رؤوسهم، والخراج في أراضيهم، وكذلك الحال مع شيزر، والزراعة والقسطل، ومعرة النعمان وفامية[4].

ثم غزا عبادة بن الصامت اللاذقية، فقاتله أهلها وكان بها باب عظيم، فاتخذ خطة عسكرية بحفر حفائر كالأسراب يختبئ بها الفارس مع فرسه، ثم أظهروا العودة لحمص، ومع قدوم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم، فلما أصبحوا

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٥١. ابن حبيش، غزوات، مج١، ص٢٢٢.

٢ ـ وهذا دليل على كتمان أسرار الجيش، وهذا ما كان الرسول يفعله عند خروجه للغزو، ومما أوصى به أبو بكر قادته "ولا تجعل سرّك لعلانيتك فيخلط أمرك". الأزدي، فتوح الشام، ص١٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٧٧.

٣ ـ وتجب الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب لم يدخل حمص فقد وصل إلى الجابية فقط. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٥١ـ٥٢. ابن حبيش، غزوات، مج٢، ص٦٧٤. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص٥٤٦. الحميري، الروض المعطار، ص١٦٤. علي، خطط الشام، ج١، ص١٢٨.

٤ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٧.

فتحوا بابهم وأخرجوا أسراحهم فلم يرعهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة عنوة، فدخل عبادة الحصن ثم علا حائطه فكبر عليه، وهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم طلبوا الأمان، فأعطاهم عبادة الأمان على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا لهم كنيستهم، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة [1].

واستكمالاً لفتح حواضر حمص الساحلية فقد سار القائد عبادة بن الصامت والمسلمون إلى السواحل ففتحوا مدينة(بلدة) على فرسخين (٤كم) من جبلة عنوة،ثم إنها خربت وجلا عنها أهلها فأعاد معاوية بن أبي سفيان بناء جبلة وكانت حصناً للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص وشحنها بالناس، وكذلك الحال بالنسبة لأنطرطوس التي كانت حصناً ثم جلا أهله فبنى معاوية لأنطرطوس ومصرها، وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس، وبذلك فإن معاوية قد اهتم بسواحل حمص بتحصينها وبشحنها كما فعل بغيرها من مدن الساحل الشامي[2]، وكذلك منبج[3].

تلك لمحة عن مجريات فتح حمص، وحتى تتضح الصورة أكثر يجب معرفة موقف الروم من تطورات الفتح، وردة فعلهم على ذلك، ولإيضاح الصورة أكثر لابد من مقارنة أوضاع المسلمين والروم المتعلقة بضرورات الحرب، فما موقف الروم من الفتح الإسلامي؟.

٣- موقف الروم من الفتح الإسلامي لحمص

عانت الإمبراطورية الرومانية[4] من مشكلات سياسية عدة كالحرب مع الفرس، ومشكلات دينية (حول طبيعة السيد المسيح)[5]، واقتصادية كانهيار

---

١ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٨.

٢ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٨.

٣ ـ البلاذري، فتوح، ص١٥٥. منبج: اسمها القديم هيرابوليس نسبة للآلهة هيرا، تقع شمال سورية الحالية. الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٧ ـ ص٢٣٨.

٤ ـ ليس هذا مجالاً للحديث عن الروم وتطور إمبراطوريتهم السياسي والإداري .....

لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: العريني (السيد الباز): الدولة البيزنطية (٣٢٣ ـ١٠٨١م)، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، ص١١٥ـ١٤٥.

٥ ـ يحيى (لطفي):استقبال بلاد الشام للفتح العربي (الخلفية الثقافية)، المؤتمر الدولي الرابع

النقد من خسائر الحرب، وعسكرية كانهيار نظام الجند، كل ذلك كان قد مثل لدى هرقل ردة فعل قوية، دفعته لإجراء إصلاحات شاملة في دولته، رغم أن المصادر العربية لم تذكر ضعف الروم وانهيار دولتهم إزاء الفتح الإسلامي.

وقيل إن الروم قد نجحوا في حل المشكلة العربية حلاً جذرياً نهائياً بنظام الأحلاف أي الفئات العربية التي حرست لهم مشارف الشام ضد الجزيرة العربية، حراسة كافية إلى حد أن الروم نسوا العرب - عرب شبه الجزيرة - وأنهم في يوم من الأيام قد يشكلون خطراً على الشام الرومي، فقد ركز الروم أنفسهم في الشمال حيث توقعوا الهجوم من أعدائهم الفرس، وأما الجنوب فكان قطاعاً مهملاً نسبياً لأنه بعيد عن الخطر الفارسي، فكان خطر الفاتحين المسلمين مفاجئاً بالنسبة للروم[1].

ورداً على ذلك يتبادر للذهن مجموعة من الأسئلة قد تغير نظرة صاحب هذا القول ومنها: ألم يكن هناك صلات تجارية بين الجزيرة العربية والروم في الشام؟. ألم يكن هناك مراسلات من الرسول محمد ﷺ لهرقل؟. ألم يتواجد جواسيس روم في صفوف المسلمين في حواضر الإسلام؟. ألم يعلم هرقل بتحرك المسلمين نحو الشام؟. فأين هي المفاجأة للروم؟.

أضف إلى ذلك أنه لم تقتصر غزوات الفرس على المناطق الشمالية من البلاد، بل عندما اجتاح كسرى الثاني (أبرويز) بلاد الشام اجتاحها وضم فلسطين التي تشكل الجزء الجنوبي لبلاد الشام، إلى بلاده، فكيف أهملت هذه الأجزاء. كذلك الأمر فقد سعى الروم منذ القرون السابقة للميلاد للسيطرة على الطريق التجاري المار بالجزيرة العربية، وإليه وجهوا حملة إيليوس غاليوس، ولأجله حطم

لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص٣٤. زكار(سهيل): المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص١٢٩.

١ - شهيد (عرفان): أسرار النصر العربي في فتوح الشام، معركة اليرموك، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص١٤١. ماجد (عبد المنعم): موقف الروم العرب من الإسلام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان البخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص١٧٧-١٩٣.

ترايان[1] البتراء[2] عام ١٠٦م، وكل ذلك ولا يعرف الروم شيئاً عن الجزيرة العربية[3].

من المرجح أن هناك أسباباً دفعت الروم للانضواء نحو الشمال، وقد يكون منها الخوف من القوة العربية الناشئة ، وبعد الجنوب عن مركز القوة في القسطنطينية، وكذلك الخشية من موقف العرب الخاضعين لهم، حيث عرفوا بتقلب موقفهم السياسي، وكذلك رغبة منهم في الاقتراب من خطوط إمداداتهم، وإبعاد العرب عنها.

ويمكن القول إن هرقل استهان بقوة العرب ولم يعط الخطر الإسلامي في أول الأمر قدره من الاعتبار، فصحيح أن تحركات المسلمين على أطراف بلاد الشام - بين مؤته وتبوك[4] - كانت كفيلة بدق ناقوس الخطر على مسمع الإمبراطور الروماني، ولكن هذه الهجمات لم تكن في نظر هرقل أكثر من هجمات محلية، من ذلك النوع الذي اعتاد بدو الصحراء أن يشنوه بين فينة وأخرى على أطراف الدولة، ولا تلبث أن تتوقف تلقائياً عندما يتصدى لها حراس الحدود من فرق الجيش الإمبراطوري، أو من القبائل الموالية للروم، والتي عاشت على تخوم الشام لتتصدى لمثل هذه الهجمات. هذا إلى أن الروم عدوا مؤته اختباراً حقيقياً لقوة

---

١ - ترايان: ترايان ٩٨م - ١١٧م اختير في عام ٩٨ م إمبراطوراً يجلس على عرش روما وقد كان قائداً للجيوش الرومانية في ألمانيا . الزين، (محمد) : دراسات في تاريخ الرومان، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط٦، ١٩٩٦م، ص١٢٩-١٣٢.

٢ - البتراء: الرقيم،عاصمة الأنباط القديمة، ومعناها بالعربية الصخر، اسمها القديم هلـ سلع، ويعني الصخر أيضاً، تقع على بعد ٥٠ ميلاً جنوب البحر الميت، ذكرها ياقوت الحموي في مادة سلع، وقال إنها حصن بوادي موسى. الحموي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٨ - ٢٦٩. الأشقر(إميل)، الحارث ملك الأنباط، دارا لأندلس، بيروت، ١٩٨٣م، ص٩-١٠.

٣ - سوسة، (أحمد) تاريخ وحضارة بلاد الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الأثارية والمصادر التاريخية، دار الحرية للطباعة والنشر، العراق، ١٩٨٦م، ج٢، ص١٧٦-١٧٨.

٤ - تبوك: موقع بين وادي القرى والشام، وهو حصن بين جبلي جسمى في الغرب، وشرَورِى في الشرق. الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص١٤- ١٥.

المسلمين، وما داموا قد انتصروا في تلك الموقعة، فإن ذلك جعلهم يتمادون في الغرور، وبخاصة غداة انتصارهم على دولة الفرس، ويستصغرون شأن العرب، الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية، فهل يجرؤ هؤلاء العرب على الصمود أمام هرقل وجيوشه[1]؟. هل يستطيع العرب التغلب على القوة الرومانية قاهرة الفرس؟.

ولما بدأت طلائع الفتح الإسلامي تلوح بالأفق، بدأ هرقل يشعر بالخطر، وراح يراقب الأحداث على أنها انتصارات مؤقتة، ولما تم للمسلمين فتح أجنادين وفحل ودمشق وحمص، غضب وسار إلى أنطاكية، وبدأ يعد العدة للانتقام من المسلمين، فكانت نهاية قوته في اليرموك[2]، عندما قرر المسلمون التراجع إلى الجنوب وإخلاء المدن التي فتحوها، استعداداً للقاء هرقل.

إن مقارنة بسيطة بين قوة هرقل وقوة العرب المسلمين، توضح مقاصد الطرفين ومواطن قوتهم، أو ضعفهم، وفيما يلي جدول توضيحي

الدولة / المقارنة	الامبراطورية الرومانية	الدولة الإسلامية
القادة	هرقل وبطارقته	الأمير أبو عبيدة بن الجراح، القائد خالد بن الوليد
الهدف	المحافظة على مستعمرة الشام ، ومنها حمص	الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام
الناحية المعنوية	حصل شرخ واسع بين أهل الشام وحكامهم، مما جعل الكثير من أهل الشام لا يتحمسون	كانت كفة المسلمين هي الراجحة، فهم مؤمنون بالله

١ ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح): الإمبراطور هرقل ومقاومة الفتح الإسلامي لبلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص٢٠٧ـ٢٠٨. فيصل (شكري): حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دارا لعلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٢م، ص٤٨ ـ٥٥.

٢ ـ لمزيد من التفاصيل حول معركة اليرموك، انظر: أبو صفية (جاسر): معركة اليرموك، دراسة تاريخية نقدية،، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص١٢٢ـ١٣٢.

والظروف الداخلية	لمساندة الروم، بالإضافة لما لحق بالسكان من خراب جراء الحرب مع الفرس، وكذلك قسوة الضرائب والنزاعات المذهبية، وسوء الأحوال المعيشية[1].	ومتشبعون بالعقيدة الإسلامية، وبينهم عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ يحثونهم على الجهاد في سبيل الله.
معاملاتهم لبعضهم بعضاً	عامل الروم المسلمين معاملة قاسية، فقتلوا كل من ظفروا به. وكان أتباعهم من مدن الشام وحواضرها كثيراً ما ينقضون الصلح مع المسلمين. وكان للروم جواسيس في جيش المسلمين.	أظهر المسلمون تسامحهم وعدالتهم مع السكان من خلال عرض الإسلام عليهم، أو الجزية، أو القتال. كان للمسلمين عيون في جيش الروم.
مكونات الجيش	روم، أرمن، روس، صقالبة، أفرنج، يونان، دقس، عرب متنصرة مستعربة مثل لخم وجذام ويلقين وبلى وعاملة من قضاعة وغسان، يهود وغيرها[2].	يتألف من جنس واحد وعنصر واحد، وهو العنصر العربي. أقل عدداً وأكثر تنظيماً.
الأسلحة	كان الروم أكثر خبرة عسكرية، وكانوا أصحاب تكتيك عسكري، وكان الفارس وفرسه مدرعين، لا تظهر سوى عيونهم[3]. ومن أسلحتهم الدروع، والجوشن، والنشاب، والحراب، والمنجنيق[4]. وكانوا مشاة وخيالة.	الحراب والسهام والسيوف. مشاة وخيالة. الجمل والحصان[5]. تشابه الأسلحة لحد ما.

---

١ ـ نسيم (جوزيف): العلاقات الإسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الإسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص٢٥٦.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص١٤٤. عاقل (نبيه): موقف سكان بلاد الشام من الفتح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٧م، مج٣، ص١٧٠.

٣ ـ عاشور، الإمبراطور هرقل، ص٢٠٩.

٤ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٣٠.

٥ ـ عاقل (نبيه): دور الجمل والحصان في الفتوح المبكرة، مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة

٣- موقف سكان حمص من الفتح الإسلامي للمدينة

لقد كانت مدينة حمص قبل الفتح الإسلامي مباشرة مدينة عربية التكوين[١]، حيث تقيم القبائل العربية المتنصرة فيها، وبحواضرها، وكان هناك صلات اقتصادية تربط ما بين القبائل المتوطنة والقبائل القادمة (الفاتحة). وفي حقبة الفتح الإسلامي وردت قبائل عديدة من شبه الجزيرة العربية، فاستقرت إلى جانب أخواتها من القبائل، وخاصة اليمنية، فاختلط السكان، وكونوا مزيجاً سكانياً متحرراً من السيطرة الاستعمارية الرومانية، قائماً على أسس من المحبة والألفة، والعدالة والرحمة، تاركين للسكان حرية المعتقد.

وهكذا فإن الصلات بين بلاد الجزيرة العربية والشام قديمة جداً لم تنقطع في أي وقت من الأوقات، ولم يكن انتقال القبائل العربية إلى بلاد الشام دفعة واحدة بل حدث على مراحل زمنية متعددة استغرقت وقتاً طويلاً، وكان دخول العرب إلى بلاد الشام ظاهرة دائمة وعادية ظلت مستمرة إلى ما قبل ظهور الإسلام، ولذلك فأنه لا يمكن تحديد زمن معين لوصول القبائل والبطون العربية إلى مسرحها الجديد[٢].

وقد خلط كثير من المؤرخين بين سكان حمص قبل الفتح الإسلامي وبعده، على اعتبار أن كل قبيلة قادمة مع الفتح استقرت - على الأغلب - إلى جانب مثيلتها من القبائل في الشام ومنها حمص.

لذلك فمن الأحرى الحديث عن موقف سكان حمص من الفتح الإسلامي قبل تعداد القبائل التي أقامت بحمص وحواضرها، وعلى أية حال فإن الحديث عن موقف سكان حمص من الفتح الإسلامي يتكون من موقفين:

أ- موقف سكان حمص أثناء الحرب ذاتها:

ففي هذه المرحلة كانت الحرب قائمة، وهناك حالة من عدم الاستقرار،

عشرة، العدد ٤٧-٤٨، ١٩٩٣م، ص٤٠-٤٩.

١ - علي، خطط الشام، ج١، ص٥٧.

٢ - دسوقي، القبائل العربية، ص٢٩. العلي (صالح أحمد): امتداد العرب في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٥٨-٥٩.

وبالتالي فإن أي موقف يتخذه سكان حمص، سيكون على الأغلب مؤقتاً كما رأينا ذلك في الحصار الأول لحمص . فهناك ضرورات تطلبت من السكان طلب الصلح، أملاً في الحصول على نجدات رومية، ثم عاد السكان ونقضوا الصلح بعد أن جاءتهم الإمدادات الرومية، كما تجدر الإشارة إلى هروب قسم من السكان ولحاقهم بهرقل، وبالحقبة ذاتها هناك سكان وقفوا إلى جانب الفاتحين المسلمين.

لذلك فإن موقف السكان في هذه المرحلة كان متذبذباً قائلين ومتذرعين للمسلمين "حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل"[1]، وهذا شيء معقول لأن الصورة الإسلامية لم تتضح لهم بعد، كما أن عقوبة هرقل ستكون قاسية على من عصاه، إذا انتصر على المسلمين.

فمن الطبيعي أن يكون موقف السكان في هذه المرحلة متذبذباً، فهم أتباع للروم من جهة، وفي مواجهة المسلمين من جهة أخرى، ولا يعلمون أي الكفتين أرجح، لذلك كانوا كثيراً ما ينقضون الصلح، لوعود الروم لهم بالمدد، ولعدم معرفتهم بأس المسلمين. وقد يكون موقف السكان هذا عائداً إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيشونها، فهم مسيحيو الروم، والمسلمون يدعونهم لدين جديد، فإن قبلوا بدينهم، فسوف يغيرون من عاداتهم الاجتماعية، وحرياتهم الواسعة، وسيضطرون لتغيير هيكل حياتهم، بالإضافة لذلك سيحرمون إن حافظوا على دينهم من المراكز الأساسية في الدول التي يستأثرون بها الآن.

ب ـ موقف سكان حمص من الفتح الإسلامي بعد أن أصبح الفتح الإسلامي واقعاً تاريخياً ثابتاً:

وقد تمثل ذلك بسرعة اندماج السكان وتقبلهم للإسلام، ومشاركتهم في الفتوح، نظراً لما رأوه من حُسن المعاملة مع المسلمين[2]، وتخلصاً من الروم وظلمهم،

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٦.

٢ ـ طه (ذنون عبد الواحد): من أخلاقيات الحرب في الإسلام الباكر، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة ٢٢، ع٧٥ ـ ٧٦، ٢٠٠١م، ص٧٣ ـ ٩٥.

فلقد كان سكان حمص يظنون أن حالهم مع المسلمين سيكون مشابهاً لحالهم مع الروم؛ لكنهم تفاجؤوا بعكس ذلك تماماً قائلين: "لقد ظننا أنهم يقتلوننا ويستعبدون أولادنا، والآن قد رحمونا وأقرونا في بلادنا على أداء الجزية والخراج"[1]. وكان رأيهم هذا مؤكداً بعدما رأوا ما ينعم به أخوانهم العرب في الشام بعد دخولهم بالإسلام.

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أظهره سكان حمص من عرب متنصرة فقد أظهروا صراحة ما كانوا يعانونه من ظلم الروم بقولهم للمسلمين: "لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم"[2]. فقد كان النظام الاجتماعي المتكامل الذي تقبله الفطرة السليمة لدى الناس جميعاً وما اشتمل عليه الإسلام من الهدى أكبر عون للمسلمين في فتوحاتهم[3].

ولم يقتصر هذا الموقف على العرب وحدهم، بل إنه شمل ألد أعداء الإسلام عبر العصور، اليهود الذين فضلوا الحكم الإسلامي على حكم هرقل قائلين: "والتوراة لا يدخل جند هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونُجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود"[4].

والسؤال المطروح هنا لماذا يقف اليهود هذا الموقف؟. هل كان اليهود يعانون من ظلم الروم لأنهم يهود؟. أم هل قدم الإسلام امتيازات لليهود؟. وهذا بدوره يقود للتساؤل عن أوضاع اليهود؟. وعن عددهم فهل هم كثر لدرجة أنهم قادرون على حماية مدينة بأكملها؟. وهل كان اليهود صفاً واحداً مع المسلمين؟.

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٥.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٤٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص١٤٥.

٣ ـ هامرتن (السير جون): تاريخ العالم، محمد ورسالته، أشرف على ترجمته قسم الترجمة بوزارة التعليم، كتبه يحيى الخشاب، مكتبة النهضة المصرية، ج٤، ص٤١٨.

٤ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٤٣.

غير أن موقف اليهود كان متذبذباً ومظهراً للنفاق، فهم يتسمون بالجبن والغدر قائلين: "إن ظهر (غلب) الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا إليه، وإلا فإن على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما انتصر المسلمون، فتح السكان مدنهم وأدوا الخراج"[1].

وتنسب الريماوي رواية اليهود السالفة إلى الخوري أسعد قائلة: "وأرجع ضعف رواية أسعد، ذلك أنه لو اكتفى بهذا القول ووثقه (أي دلنا على المصدر الذي استقى منه معلوماته) لأخذنا بها، ولكنه عمم هذا الموقف من اليهود في حمص إلى اليهود في جميع البلاد المفتوحة حين قال متابعاً: "وفعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود قائلين إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد"[2].

والريماوي محقة في أن الخوري لا يوثق معلوماته، فقد ورد هذا الخبر لديه دون توثيق[3]، لكن رأيها غير صائب بخصوص المصدر الذي استقى معلوماته منه، فقد وردت المعلومة لدى البلاذري، في فتوح البلدان[4]، لذلك على الريماوي أن تدقق وتمعن النظر قبل إصدار الأحكام المسبقة من جهة، وعدم نسب المعلومة إلى مؤرخ حديث قائلة: "وأظن أنه (الخوري) استقى هذه المعلومات من كتاب الماروني يوسف الدبس تاريخ سوريا"[5]. فالتاريخ لا يقوم على الظن.

وعلى أية حال فإن المعاملة الحسنة التي لقيها العرب المتنصرة من المسلمين كانت سبباً في عدم مقاومة هذه القبائل للمسلمين، بل في بقاء بعض المدن على ولائها للمسلمين بالرغم من خروج العرب المسلمين منها، فلقد رد المسلمون على أهل

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٤٣.

٢ ـ الريماوي، مدينة حمص، ص٢٣٦.

٣ ـ انظر: أسعد، مدينة حمص، ق٢، ص٣٦.

٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٣.

٥ ـ الريماوي، مدينة حمص، ص٢٣٦.

حمص ما أخذوه من الخراج منهم وقالوا: "قد شغلنا عن نصرتكم، والدفع عنكم فأنتم على أمركم"[1]. وذلك عند ذهابهم إلى اليرموك بعد الحصار الأول.

كما أنه يجب أن لا يعزى سبب انتصار المسلمين في فتوح الشام ومنها حمص، لضعف الروم وخلافاتهم المذهبية، وإنما لقوة بأس المسلمين في الدفاع عن معتقدهم ونشره مهما بلغ الثمن، وبناء الإنسان المجاهد عقائدياً ونفسياً وإيثار الموت على الحياة في سبيل نشر الدين والدفاع عنه، مع ما تزامن من تسامح ورحمة ومعاملة حسنة، ويجب التذكر أن هرقل جمع ما يقارب خمسمائة أو ستمائة ألف مقاتل حشدهم في اليرموك، فأين ضعفه في مواجهة المسلمين؟.

ويؤكد ذلك عاقل بقوله: "لم نجد في مصادرنا ما يؤكد المقولة التي سادت في كتابات بعض الباحثين القدماء من أن سوء الإدارة الرومانية من جهة، والخلاف المذهبي بين مسيحي سورية وبطريركية القسطنطينية من جهة أخرى، سهلت مهمة الفاتحين العرب..... لا بل إن هناك ما يؤكد أن العرب لاقوا مقاومة ضارية من سكان هذه المدن، وأنهم لم يستسلموا إلا بعد أن وجدوا أن لا قبل لهم بالاستمرار في المقاومة"[2].

إن موقف سكان المدن طبيعي وعادي، فمن المعروف أن السكان يدافعون عن بلادهم ضد كل الأخطار التي تواجهها، وبغض ا لنظر عن طبيعة هذا الخطر، فربما نظروا إليه على أنه احتلال وليس فتحاً كما يسميه المسلمون، وكذلك فهو قادم لنشر دين جديد يختلف عن دينهم، وهذا من شأنه أن يولد لديهم مقاومة وكذلك دفاعاً عن معتقداتهم وكيانهم، فكما العرب يناضلون لنشر دينهم الجديد، فهم يناضلون للحفاظ على دينهم وكيانهم.

ولقد اعتمد المسلمون على من أسلم من العرب في حمص وغيرها، كعيون يستطلعون بها أخبار الروم، ومنهم السامرة، والجراجمة، وكانت الساقطة - وهم الأنباط - يقدمون المدينة بالدَّرمك (الدقيق) والزيت في حقبة قبل الإسلام، وبعد أن دخل

---

١ - خريسات، دور العرب المتنصرة، مج٣، ص١٥٥.

٢ - عاقل، موقف سكان بلاد الشام،مج٣، ص١٧٥.

الإسلام، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط: "فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وتحصنت معه قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدموا إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلف هرقل بحمص"[1]. وكذلك الحال مع الروم الذين كان لهم جواسيس منتشرة في بلاد الشام، وحتى في الجزيرة العربية.

كما أن القادة المسلمين ومنهم أبو عبيدة استعان ببعضهم كمترجمين له، خاصة أثناء التفاوض بشان الصلح والمراسلات[2]، وكأدلاء يسترشدون بهم في الطرقات ومعرفة كمائن الأعداء.

وقد اعتمد المسلمون في أثناء الفتح على السكان المحليين في مسألة التموين وتوفير الطعام،. كما حصل عند فتح حمص. فقد قدم أهل حمص الطعام[3]، وأحياناً الثياب لوفرتها في حمص ولدرء برد الشتاء فيها، وكذلك المأوى والمسكن. وهي من الأساسيات التي يحتاجها الجيش الإسلامي خاصة وأنه انتقل من مناخ الصحراء إلى مناخ المتوسط، فتغيرت الخصائص المناخية، وظهرت حاجة رئيسة للباس الدافئ، كما أن مسألة التموين ضرورية للجندي ولخيله لاستكمال الفتوحات.

وهكذا فقد أدت هذه الفئة للمسلمين دوراً فاعلاً أثناء الفتوحات الإسلامية، فقد سارعت هذه الفئة وطلبت الصلح من المسلمين، وقدمت لهم خدمات في التجسس على الرومان، وأدلاء للمسلمين، وتقديم الأرزاق للجند، وهي بهذا الدور لا تقل عن دور القبائل التي حاربت إلى جانب المسلمين[4].

كما لا يفوت ذكر وقوع عدد كبير من أسرى الروم في يد المسلمين، وقد لجأ المسلمون إلى عدة طرق في معاملة الأسرى تفوح منها رائحة العطف والرحمة،

---

١ ـ الواقدي، المغازي، ج٣، ص٩٩٠. خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٥٥- ١٥٦.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١١١.

٣ ـ خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٥٦. حسين (فالح)، الفروض العينية . الضيافة والأرزاق . كمصدر لتمويل جيش الفتح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، تحرير محمد عدنان البخيت، ١٩٨٧م، ص١٨٢.

٤ ـ خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٥٧.

والرقة، كمبادلة الأسرى وفدائهم وغيرها[1].

وإذا كان هذا هو حال السكان والقبائل فمن أي القبائل كانوا؟. هذا جدول توضيحي عن قبائل حمص وحواضرها حسب ما توفر من معلومات، بالرغم من أنه لا يوجد إحصاء تاريخي دقيق يرشد إلى معرفة القبائل التي نزلت حمص وعددها عند الفتح وبعده[2].

---

١ ـ خربوطلي (شكران): الأسرى ومعاملتهم من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر النبوي، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٨٩ـ٩٠، ٢٠٠٥م، ص٤٠ـ٤٧.

٢ ـ "لا يوجد لدينا حتى الآن إحصاء تاريخي يرشدنا إلى معرفة القبائل العربية التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده وليس ثمة وسيلة لمعرفة ذلك سوى الاعتماد على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين من جهة والروم ومتنصرة عرب الشام من جهة أخرى، ودور هذه القبائل فيها وقدراتها. وكذلك أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين أنفسهم كوقعة صفين ووقعة مرج راهط، بالإضافة إلى ما نجده في بعض المصادر التاريخية والأدبية والجغرافية في محاولة لاستخلاص معرفة تقريبية بالقبائل التي كانت بالشام في الحقبة موضوع البحث وصلتها بالأحداث التاريخية وقتئذ مما يفسر كثيراً من الأحداث والعلاقات ويحرر هذه المعرفة بالقبائل من القوالب الجامدة والجداول الرقمية التي لا تصلح لدراسة التاريخ. دسوقي، القبائل العربية، ص١٣٧. ويذكر كرد علي، خطط الشام نقلاً عن بعض المؤرخين إحصائيات سكانية عند الفتح بقوله: "وقد ذكر لامنس أن العرب المسلمين لما انتهوا من أمر الجابية وعَمَواس ودابق أي لما فتحوا الشام برمته أنشأوا ينزلون المدن والقرى وقد دخل منهم قبائل برمتها قدرها من مئة إلى مائتي ألف ونظن هذا التقدير أقل من الحقيقة لأن المسجلين بديوان العطاء في دمشق فقط كانوا في الصدر الأول خمسة وأربعين ألفاً فما بالك بسائر من كان يجري عليه العطاء في البلدان الأخرى وغيرهم من التجار وأصحاب الزرع والضرع فلو فرضنا أن نصفهم قتلوا في الحروب فيبقى النصف الآخر أمام سكان البلاد، وكانوا من أربعة إلى خمسة ملايين وكان في الشام على عهد الاسكندر كان يسكنها عشرون مليوناً من البشر ولما جاءت العرب في القرن السابع كان سكانها قد نقصوا حتى بلغوا عشرة ملايين، ثم نقص عددهم إلى أربعة ملايين". وفي هذا الإحصاء ضرب من ضروب المبالغة. علي، خطط الشام، ج١، ص٦٨. وربما أن تناقص هذه الأعداد ناجم عن كثرة الحروب مع الفرس من جهة، وللأمراض وخاصة الطاعون الذي كان يقتل الملايين.

جـ ـ سكان حمص

	المنطقة	القبائل	المصدر أو المرجع
المناطق الشمالية لحمص	حمص	أهل حمص جميعاً من يمن من طيء وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم من بطون اليمن	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٤٥. العلي، امتداد العرب، ص٦٧.
		تنوخ وتضم قضاعة والأزد وأحلافهم من إياد وجذام، ولخم وسليح، وسليم وبن الحيقار وغيرهم.	ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٥٦٢
		الكلاع	ابن الكلبي، نسب معد، ج٣، ص٢٨٠.
		باهلة	المنقري، وقعة صفين، ص٢٠٧.
		بهراء	ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٥٦. خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٤٠
		غسان	القلقشندي، نهاية الأرب، ص٣٨٨. الهمذاني، صفة جزيرة العرب، ص٢٤٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣١٩
		السكون والسكاسك	عطوان، الجغرافية، ص١٠١.
		عاملة، بلى	ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص١٤٤.عاقل، موقف سكان بلاد الشام، ص١٦٣.
		المارونية من النصارى	المسعودي، التنبيه، ص١٤٧.
		يهود ونصارى	البلاذري، فتوح، ص١٤٠
		جراجمة وفرس	البلاذري، فتوح، ص١٦٥.
		الأرمن والسريان	ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص١٤٥.

		والأنباط	الريماوي، مدينة حمص، ص٢٢٦.
	حماة	بهراء، تنوخ، كلب، كندة	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٤٥. خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٤٠. العلي، امتداد العرب، ص٦٨.
		مارونية من النصارى	المسعودي، التنبيه، ص١٤٧.
	صوران	إياد	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤. العلي، امتداد العرب، ص٦٨.
	شيزر	كندة، كلب	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤. العلي، امتداد العرب، ص٦٨.
		المارونية من النصارى	المسعودي، التنبيه، ص١٤٧.
	كفر طاب	أهلها قوم من يمن من سائر البطون، أكثرهم من كندة	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		سليح	ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٥٦١.
	معرة النعمان	تنوخ	الحميري، الروض المعطار، ص ٥٥٥ . العلي، امتداد العرب، ص٦٨.
		مارونية من النصارى	المسعودي، التنبيه، ص١٤٧.
	تلمنس	إياد	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤. العلي، امتداد العرب، ص٦٨.
	البارة	بهراء	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
الحواضر الجنوبية	قارة	أغلب أهلها نصارى	القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣.
المناطق الشرقية	تدمر	كلب	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		عاملة	الطبري، تاريخ ، ج١، ص٣٦٤.
		اليهود، وأباق العبيد، وقطاع السبيل وحمال	الحميري، الروض المعطار، ص١٣١.

		النهب	
		تنوخ	خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٤٠.
	القريتين (حوارين)	نصارى، غساسنة	ابن خرداذابة، المسالك، ص٧٣.
	سلُمية	أخلاط من الناس	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		كلب	الهمذاني، صفة جزيرة العرب، ص٢٧٢.
السواحل	بلنياس	أهلها أخلاط	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
	جبلة	همدان وبها قوم من قيس وإياد	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
	اللاذقية	أهلها من يمين ومن سليح وزبيد وهمدان ويحصب.	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		نصارى	البلاذري، فتوح، ص١٣٨.
	أفامية	عذرة وبهراء	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		كلب	ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٥٦١.

ويتضح من الجدول السالف أن العنصر العربي هو العنصر الغالب في حمص، وخاصة القبائل اليمينية القضاعية، ولكثرة القبائل اليمنية في حمص ضُرب المثل بذلة القيسي فيها، ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هما أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام، كان انحياز هذه الكتلة إلى جانب أي حزب سياسي خليقاً بترجيح كفته، وبمنحه تأييداً حربياً وسياسياً له شأنه، كما ويجب التذكر أن العرب شكلوا الأكثرية الساحقة في مدن جند حمص الساحلية[1].

---

١ ـ خماش (نجدة): الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية، دراسة

وتجدر الإشارة إلى أن القبائل في حواضر حمص كانت متداخلة السكن، فالكثير من المجموعات القبلية تشترك في الموقع نفسه، ولا يقتصر الأمر على حمص وحواضرها، بل يبدو أنه كان عاماً لسكان الشام.

كما يبدو أن الاختلاط في طبيعة الاستقرار في حمص وحواضرها نابع من أن المسلمين قد استقروا في مدن مبنية أصلاً، وأنهم لم يبنوا مدناً جديدة وبالتالي نزلت كل قبيلة في قرية خاصة بها وفقاً للنظام القبلي[1].

ويلاحظ أنه وبعد انتهاء الفتح واستقرار القبائل اليمينية في حمص استمرت الهجرات العربية للشام ومنها حمص.

ويتضح من الجدول السالف أن بلاد الشام كانت موطناً لكثير من القبائل العربية التي كانت تتنقل بين أجزائه[2]، كما كانت قبائل تنوخ وطيء تسكن في جند حمص قبل الفتح، وانضاف إليها بعد الفتح القبائل اليمانية التي شاركت في اليرموك وبقية المعارك[3]. ويؤكد اليعقوبي على أن أغلب أهل حمص من القبائل اليمنية[4]، ويلاحظ استقرار العديد من القبائل اليمنية ليس في حمص وحدها بل في كثير من مناطق الشام، وربما كان من أسباب استقرارهم في حمص ما كانوا يعانونه من ضيق العيش وحر الصحراء فيخرجون إلى بلاد الشام[5].

وقد سلفت الإشارة إلى دور العرب المتنصرة في الفتوح، ووقوفهم تارة إلى جانب العرب المسلمين، وتارة إلى جانب الروم، وترجيح إحدى الكفتين، ولا بد من الإشارة إلى وجود قبائل عربية كانت في أشد المراسة والعداء للعرب المسلمين، وهم

للأوضاع الاجتماعية والإدارية، دار طلاس، ط١، ١٩٨٧م، ص١٧.

١ ـ يونس (محسن): اليمن واليمانيون منذ المبعث وحتى سقوط الدولة الأموية، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص١١١-١١٤.

٢ ـ بطاينة (محمد): القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الإسلامي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٥م، ص١.

٣ ـ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٤٥.

٤ ـ اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.

٥ ـ بطانية، القبائل العربية في بلاد الشام، ص٤.

أتباع جبلة بن الأيهم الغساني، الذي كان في مقدمة جيش الروم، ومعه من القبائل غسان ولخم وجذام وغيرهم[1].

وقد شارك كثير من صحابة رسول الله ﷺ في فتح حمص، واستقروا بها فيما بعد، فكان لذلك أثر طيب في نفوس الأهالي، فتوسعت مداركهم مما ينهلون من علم ومعرفة للحديث الشريف، فكانت حمص مدرسة للحديث الشريف، لكثرة من رفدها من الصحابة والتابعين، ويلاحظ بالعودة إلى بداية الخلافة الراشدة وبعد الانتهاء من الردة توجيه أبي بكر الصديق خطاباً لعرب شبه الجزيرة العربية يحثهم فيه على الجهاد في سبيل الله، ونجدة إخوانهم على مشارف الشام، وقد وجد خطاب أبو بكر تجاوباً يمنياً واضحاً، فقدموا عليه، وكلما قدمت عليه جماعة كان ينفذها للقادة في الشام[2]، مصطحبين معهم أولادهم ونساءهم وأموالهم[3].

وكان ممن قدم على أبي بكر - رضي الله عنه - كان ذا الكلاع الحميري[4]، الذي دعا بفرسه ونهض بقومه وأمر بالعسكر فعسكر معه جموع من أهل اليمن، وسارعوا إليه في عدد كبير[5]، كما قدم حوشب ذو ظليم السكسكي[6] في جماعة من قومه، وغيرها من القبائل اليمنية التي وردت في الجدول السالف.

لقد كانت تلك القبائل التي استقرت في حمص قد امتزجت مع السكان

---

١ - الواقدي، فتوح، ج١، ١٣٦.

٢ - اليعقوبي، البلدان، ج٢، ص١٣٣. ابن أعثم، الفتوح، ج١، ص١١٩.

٣ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٢.

٤ - ذو الكلاع الحميري: هو سميفع بن باكور أو يقال أبو شرحبيل الحميري، ابن عم كعب الأحبار، أدرك النبي ولم يره، كان يسكن حمص، وكانت له حوانيت بدمشق، شهد اليرموك وفتح دمشق، وصفين، وكان على أهل حمص في صفين وهم الميمنة، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٧، ص٣٨٢.

٥ - ابن حبيش، غزوات ابن حبيش، ج١، ص١٤٨-١٤٩.

٦ - حوشب ذو ظلم السكسكي: أدرك النبي ولم يره، وراسله النبي ﷺ بجرير بن عبد الله، وشهد ذو ظليم اليرموك وكان أميراً على الكردوس، روى عن النبي مرسلاً، وابنه عثمان شهد صفين مع معاوية، وكان على رجاله أهل حمص، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٥، ص٣٤٢.

المحليين وشكلوا نواة مجتمع جديد قائم على أسس وتعاليم إسلامية محضة، في الوقت الذي لا يختلفون فيه مع غير العرب القاطنين في حمص وحواضرها فهناك نظام قائم على أساس المصالح المشتركة، فغير المسلمين عليهم أن يقيموا في أراضيهم، وأن يزرعوها، وأن يؤدوا ما عليها من خراج، وما عليهم من جزية، فيتعايش الطرفان في جو اقتصادي يلبي حاجاتهم ورغباتهم، وبالتالي فإن التناقض في التركيب المعيشي للسكان لم يلبث بعد حقبة قصيرة أن تلاشى، وامتزج الفاتحون مع القاطنين.

فكان أهل حمص أكثر الناس ظرفاً ومجوناً ورقاعة، ولهم على نهر العاصي منازل كثيرة أنيقة[1]. فقد كان المسلمون في بداية الفتح يقيمون في خيم من الشعر، ثم ابتنوا المنازل، ولا بد أن المسلمين أقاموا في تل حمص بعد فتحها، وبناء مسجد فيها.

فبعد أن تم فتح حمص نظم أبو عبيدة أمور القبائل فيها بأن بعث السمط بن الأسود في بني معاوية، والأشعث بن مئناس في السكون، والمقداد في بلى[2].

وقد استقر توزيع القبائل العربية في بلاد الشام على الصورة نفسها طوال العصر الأموي من حيث الأساس، فيلاحظ أن القبائل التي كانت بالشام قبل الإسلام قد استمرت في أماكنها ومنها انتشرت بسبب تزايد عددها[3].

وبصورة عامة فإن البحث عن تاريخ القبائل العربية في حمص قبل الإسلام حديث مضطرب، ويكتنفه الغموض، فحمص جزء من بلاد الشام، والقبائل استقرت في بلاد الشام ككل، أضف إلى ذلك أن الصورة التي تقدمها المصادر العربية حول تعاقب ظهور القبائل في بلاد الشام وسلطانها لا نستطيع الأخذ بها لعدم معاصرة أصحابها لما كانوا يكتبون عنه، إلى أن اهتم معاوية بن أبي سفيان

---

١ ـ الزهري (أبي عبد الله بن محمد بن أبي بكر): (المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري)، كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ص٧٠.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٦٠١.

٣ ـ الدوري، العرب والأرض، ص٢٧.

بتدوين أخبار العرب، وبالرغم من ذلك الاهتمام فإن ما يتعلق بالأخبار الإسلامية في العصر الأموي، وقف منها الرواة العراقيون بعد الثورة العباسية بإيحاء من السلطة، أو لأسباب أخرى موقف المتجاهل إن لم يكن موقف الراغب بالطمس وهذا ما حدث[1].

وتظهر بعض المسائل المتعلقة بالقبائل إضافة لما سلف ومنها:

- تظهر مسألة المنازل الشاغرة وسكن المسلمين بها، عندما صالحوا أهل حمص على (أنصاف دورهم)[2]، ويبدو أن هذه الفكرة كانت تمثل إجراءً مؤقتاً لجأ إليه المسلمون في بداية حركة الفتح، بسبب حاجتهم إلى قواعد عسكرية للانطلاق منها لفتح البلاد، ولأن المسلمين كانوا قد اصطحبوا معهم أولادهم ونساءهم، وأموالهم، إلى أن استقر بهم الحال فابتنوا المنازل، كما أن هناك عدداً كبيراً من الروم كانوا قد لحقوا بهرقل تاركين منازلهم، فكثرت نتيجة لذلك فضول الدور والمساكن، فنزلها المسلمون.

ويمكن الاستدلال على إحصاء تقريبي لعدد سكان حمص عند الحصار الأول بناءً على ما ورد في حديث الفتح، وأن الجزية قدرت بأربع دنانير على الشخص الواحد[3]، وأن المبلغ الذي جمع من السكان آنذاك قدر بـ ١٧٠,٠٠٠دينارأيسروا أو أعسروا[4]، وبالتالي فإن قسمة العدد الأخير على مقدار الجزية يساوي ٤٢,٥٠٠ نسمة عدد سكان حمص عند توقيع الصلح الأول مع المسلمين، والملفت للنظر أن عدد المسجلين في ديوان حمص في ولاية النعمان بن بشير الأنصاري، في خلافة معاوية سنة ٦٠هـ/ ٦٩٧م، (أي بعد مرور ٤٤ عام على فتح حمص) بلغ ٢٠,٠٠٠ نسمة[5]، وإن الديوان كان يضم بالإضافة إلى الجنود ذراريهم.

---

١ ـ خربوطلي (شكران): ماوية ملكة العرب وإشكالية تاريخ العرب قبل الإسلام في بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد٨١-٨٢، ٢٠٠٣م، ص٣٩ .

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٠٠.

٣ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٩٤.

٤ ـ الأزدي، فتوح الشام، ص١٤٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٣٩٤.

٥ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٤، ص٤٨٠.

إن ذلك التناقض يؤكد صحة عدد سكان حمص ـ كما ورد عند الفتح ـ غير أن الحقيقة الأكبر هي هروب أكثر من ثلثي سكان حمص بعد الحصار الثاني، وإن الفئة الباقية كانت قليلة "طبقة الفقراء"، وليس أمامها مجال إلا أن تدخل في الإسلام وتمتزج مع السكان.

حاصر المسلمون بعد فتح دمشق مدينة حمص مرة ثانية، وكانوا قد انسحبوا منها قبيل معركة اليرموك، ففتحوها صلحاً ووردت المعاهدة على صورتين إحداهما أن أهلها قد حصلوا على الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تهدم، ولا تسكن، باستثناء ربع أو نصف كنيستهم موضع المسجد الجامع[1]، وعلى أن يضيفوا المسلمين يوماً وليلة[2]. والصورة الثانية تشير إلى أن أبا عبيدة صالحهم على أنصاف منازلهم، وأن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم، ولا ينزلون عليهم، فتركوه لهم وولي المسلمون معاملة ما جلا عنه ملوكهم[3]، وعلى أرض حمص مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار[4]. وأن السمط بن الأسود الكندي هو الذي قسم حمص خططاً بين المسلمين، حتى نزلوها فأسكنهم في كل مرفوض جلا عنه أهله أو ساحة متروكة[5]. وقد احتفظ العرب حتى فيما بعد نزولهم في المدن وعيشهم في الحياة المدنية بالتنظيم القبلي، وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا المدينة، ولهذا كانت المدن تقسم منذ تأسيسها إلى أحياء خاصة تدعى الخطط أو القطائع، ينزل في كل خطة أو قطيعة قبيلة من القبائل، ولكل حي منازله ومسجده وسوقه وحتى مقبرته الخاصة[6]. وهذه إجراءات توطينية تؤكد استقرار

---

١ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٧. ابن أعثم، فتوح، ج١، ص٢١٦. قدامه، الخراج، ص٢٩٧.

٢ ـ الأزدي، فتوح الشام، ص١٤٥.

٣ ـ ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٥٧٥.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٣٩٤. الأزدي، فتوح الشام، ص١٤٥.

٥ ـ البلاذري، فتوح، ص١٣٧. الدوري (عبد العزيز): تنظيمات عمر بن الخطاب، " الضرائب في بلاد الشام" المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، ص٤٦٣.

٦ ـ خربوطلي (شكران)، زكار (سهيل): الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق، ٢٠٠٥ـ٢٠٠٦م، ص٣١٨.

المسلمين في حمص، فقد كان تنظيم أبي عبيدة للقبائل في حمص، يشكل نواة مجتمع إسلامي جديد. أما ما يتعلق بموضع المسجد وأنه أصبح جزءاً من الكنيسة فله أبعاد عديدة فربما أن أبا عبيدة أراد أن يترك للنصارى حرية المعتقد إذا دفعوا الجزية كما أن ملاصقة المسجد للكنيسة سيرى النصارى من خلاله المسلمين ويتعاملون معهم وقد يدفعهم ذلك للإسلام، كما أن ظروف الفتح لم تكن تساعد على بناء مسجد آنذاك (الحصار الأول)، ودلت على المعايشة السلمية بين المسلمين وغير المسلمين.

وتبرز مسألة توطينية أخرى أثناء الفتح، وهي أن المسلمين في فتوحاتهم لحمص وغيرها من بلاد الشام كانوا يقطعون بها القطائع، وذلك لعدة أهداف منها: إحياء الأرض واستصلاحها، وخدمة النفع العام، وتألفاً لبعض رؤساء القبائل وكذلك لدواعي الحاجة والإعاشة[1]، وغيرها من الأهداف التي تشجع على الاستيطان واستصلاح الأرض التي تمثل استقرار الإنسان بعد زراعتها.

أما بالنسبة للعناصر غير العربية فوردت عدة إشارات عن الأقباط واحتواء العروبة لهم، وتفيد المعلومات التاريخية عن مشاركتهم إلى جانب المسلمين في غزواتهم ومعاركهم البحرية ضد الرومان، وإسهامهم الفعال في صناعة المراكب، وفي قيادتها أثناء القتال، خاصة في ذات الصواري، وجزيرة قبرص[2].

وأما الجراجمة فهم قوم كانوا يسكنون مدينة "الجرجومة" على جبل اللكام بالقرب من أنطاكية، وقد مر الاحتواء العربي لهم في عدة ادوار، وواجه بعض المصاعب حتى اضطر عبد الملك إلى مصالحتهم أثناء فتنة ابن الزبير، ثم استطاع التغلب عليهم، ثم تحرروا ثانية زمن الوليد بن عبد الملك فوجه إليهم أخاه مسلمة الذي خرب مدينتهم واقتحمها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، فصار بعضهم

---

١ ـ خريسات (محمد): القطائع في صدر الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ٢٧ـ٢٨، ١٩٨٧م، ص٦٧ـ٩٩.

٢ ـ تدمري (عمر عبد السلام): الفتح الإسلامي وسياسة الإسكان لساحل دمشق (لبنان)، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، ص٣٦٢.

إلى حمص، ونزل قسم منهم أنطاكية[1].

أما اليهود فقد سلفت الإشارة إلى موقفهم المتذبذب لتأييد الروم، وترجيحهم للمسلمين، وإن كان مظهراً من مظاهر النفاق المؤقت إلا أنه يكشف عن العداء الرومي اليهودي السالف.

أما الفرس فكانوا في بعلبك وحمص وأنطاكية، حيث نقل معاوية عدداً منهم إلى سواحل الشام[2].

وكذلك الأمر بالنسبة للمارونية من النصارى فقيل إن أمرهم مشهور بالشام، وأكثرهم في جبل سنير ولبنان وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان[3]، وكان الأرمن في حمص في طاعة الروم، وانتفضوا عنهم أثناء الغزو الفارسي، ثم أثناء الفتح الإسلامي[4]. كبقية العناصر غير العربية الأخرى.

أما الروم واليونان فهم أشد إخلاصاً للروم، لذلك فإنهم استوطنوا بالساحل على أنه أقرب المناطق لدولتهم، وأقام معظمهم ممن لم يهرب في أنطاكية.

لقد كان احتواء الإسلام للعناصر غير العربية واضحاً منذ الفتح، ولاشك أن هذه العناصر قد انخرطت في المجتمع الإسلامي، فمنهم من أسلم فعاش له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومنهم من لم يسلم فكان من أهل الذمة أو الموالي. وعمل بعضهم بالأعمال الإدارية كالكتابة في الديوان، وعمل بعضهم في صناعة السفن والقوارب وغيرها من مستلزمات تلك الحقبة.

---

١ ـ البلاذري، فتوح، ص١٦٤ـ١٦٥.

٢ ـ ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٩٠. خماش (نجدة): دراسات في التاريخ الإسلامي، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤م، ص٢٥.

٣ ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): (ت ٣٤٦هـ /٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، طبعة جديدة ومنقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م، ص١٤٧.

٤ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن): (ت ٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ /١٣٣٢ـ١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون، المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م، ج٢، ص١٤٥.

ولا تسعف المصادر بما يلزم من معلومات لرسم صورة عن الجوانب الاجتماعية في حمص تحديداً، فقد جاء ذكر المصادر عن الشام عموماً[1]، وهذا ينطبق على حمص وغيرها من مدن الشام.

ويبدو أن أهل حمص كانوا كثيري الأفراح والمسرات[2]، فعندما بلغ والي حمص ابن قرط في خلافة عمر بن الخطاب عن وجود فرح في حمص، وأن أهل حمص اعتادوا أن يحملوا العروس على الخيل في هودج موقدين النار حولها، خرج إليهم ابن قرط وكسر الهودج وأطفأ النار، وخطب بهم وحثهم على نبذ ما كان سائداً من عادات ما قبل الإسلام[3].

كما كان من عادات أهل حمص صبغ شعرهم باللون الأسود[4]، وكان أبو أمامة الباهلي ممن يقصون شواربهم، ويعبون لحاهم ويصفّرونها[5].

كما كانت تقام صلاة العيد في مسجد حمص[6]، ووجدت عادات الحمامات في حمص والتي ربما كانت حمامات عامة لأن السيدة عائشة رضي الله عنها نهت نساء حمصيات عندما وفدن حاجّات عن دخول الحمامات العامة، وهي من العادات المكروهة للمرأة للخروج بغير إذن زوجها، وقد أمرن بالقرار في البيوت[7] لقوله تعالى: "وقرن في بيوتكن"[8]. كما وجدت أعياد النيروز والمهرجان لغير المسلمين[9].

---

١ ـ الدرايسة (وداد): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأموي (٤٠ ـ ١٣٢هـ / ٦٦٠ ـ ٧٥٠م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ص٥٥ وما بعد.

٢ ـ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤.

٣ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٥، ص٣٤٣.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٥، ص٣٤٣.

٥ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٧، ص١٣١.

٦ ـ مجمع الزوائد، ج٢، ص٢٠٥.

٧ ـ الشيباني (محمد بن الحسن)، شرح كتاب السير الكبير، إملاء محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ط١، ١٩٧١م، ج١، ص١٣٦.

٨ ـ الأحزاب، ٣٣.

٩ ـ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٣١٣.

أما ما وصف به أهل حمص من حمق[1] وغيرها من الألفاظ فقد ردد الكثير من المؤرخين ما قاله أسلافهم ولعل ما ذكره "المدائني": أن عمرو بن العاص وفد على معاوية ومعه قوم من أهل حمص فأمرهم إذا دخلوا أن يقفوا ولا يسلموا بالخلافة، فلما دخلوا قالوا: السلام عليك يا رسول الله، وتتابعوا على ذلك. فضحك معاوية وقال: أغربوا، وزجرهم، فلما خرجوا، قال لهم عمرو: نهيتكم عن أن تسلموا بالخلافة فسلمتم بالنبوة عليكم لعنة الله[2]. وهذه رواية خاطئة إذ أن عمرو بن العاص لم يتولَ حمص لمعاوية بل تولى مصر، كما أن علاقة عمرو بن العاص مع معاوية كانت حسنة بحيث لا يطلب عمرو عدم السلام على معاوية بالخلافة، بالإضافة إلى أن هؤلاء النفر لم يكونوا بهذه السذاجة حتى لا يميزوا بين الرسول محمد ﷺ وبين الخليفة، وهي رواية حاولت تشويه العلاقة بين معاوية وعمرو، وكذلك الإساءة لأهل حمص وهذا نهج سار عليه بعض المؤرخين فيما بعد. ويذكر ابن جبير عندما سأل أحد الشيوخ هل يوجد في حمص بيمارستانات؟. فرد عليه منكراً حمص كلها بيمارستان[3]. وقد سار على هذا النهج ياقوت الحموي تعصباً لمسقط رأسه حماه. ويغالط ابن جبير نفسه فيصف أهل حمص أنهم موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو[4].

وقيل أن الحمصيين كانوا في العصور الإسلامية الأولى ذوي أنفة وعصبية جعلتهما يثبون مراراً ضد عمال الأمويين والعباسيين، فتأتيهم الجيوش للتأديب والتنكيل، فمن كثرة الضربات التي أنزلت بهم وشدتها صار من يريد التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة يتظاهر بالبله والخبال مدة قصيرة، وتعدى هذا التظاهر بعد حين إلى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها يتوسل به من يريد الإيهام، ولما كثر عدد المتظاهرين صار الغرباء يظنون شيوع ذلك في كافة أهل حمص،

---

١ ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٣.

٢ ـ البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣١.

٣ ـ ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٩.

٤ ـ ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٨. ووصفهم الحميري بهذا الوصف أيضاً، الروض المعطار، ص١٩٩.

وتناقلت الألسن هذه الشائعة ولم يعد بالإمكان التقاطها[1].

وعلى أن مثل هذه الألفاظ يجب أن تترك بعيداً، ويجب التمسك بألفاظ من شأنها أن تقوي الروابط والألفة والمحبة بين كافة المسلمين، لا أن تحاول تفرقتهم، أو زرع بذور الشقاق بينهم.

إن المدينة مثلما هي مشهد عمراني، هي تآلف اجتماعي، ومن هذا المنطلق فلقد كان للتآلف الاجتماعي في حمص منذ القديم أهمية واضحة بخاصة في ميدان التوافق بين الدينين الإسلامي والمسيحي، فأحياء حمص متشابكة والمسجد والكنيسة بجانب بعضهما، ويتعاون الجيران مع بعضهم ويتآلفون دوماً، ومن الطريف أن بعض مساجد حمص وبخاصة مسجد وجامع خالد بن الوليد قد قام ببنائه معماريون مسيحيون ومسلمون معاً[2].

وبعد فتح حمص كان على القائد أبو عبيدة أن ينظم أمورها الإدارية من ولاة وقضاة وغيرها من المناصب التي تتطلبها تلك الحقبة، وقبل الحديث عن إدارة حمص، ونظراً لارتباط موضوع الفتح بمشاركة أهل حمص في الفتوحات الإسلامية الأخرى، كان لزاماً تقديم عرض لأهم منجزات الحمصيين على الصعيد العسكري.

لقد غدت حمص بعد الفتح القاعدة العسكرية وأطلق عليها الجند المقدم[3]، وقد سميت بذلك نظراً لاتساع المساحة وللقرب من أرض الروم، ومتاخمته

---

١ ـ زكريا، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، وصف طبوغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي الاسكندرونة إلى أبواب دمشق، ص٣٤٨.

٢ ـ شيخاني، حمص وخالدها، ص٣٤.

٣ ـ الأزدي (محمد بن عبد الله)، (ت٣٣٤هـ / ٩٤٥م): تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م، ص٤٢٤. البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٢، ص٣٠٣. ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص٤٤٨. وقيل إن حمص كانت يومئذ ثغراً وأن الناس كانوا يجتمعون بالجابية لقبض العطاء، وإقامة البعوث من أرض دمشق، في زمن عمر وعثمان حتى نقلهم إلى معسكر دابق معاوية بن أبي سفيان لقربه من الثغور، قال: " فكان والي الصافية وإمام العامة في أهل دمشق، لأن من تقدّمهم من أهل حمص وأهل قنسرين والثغور مقدمة لهم، وإلى أهلها يولون إن كانت لهم جولة من عدوهم. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٣٤٦.

لحدوده[1].

وقيل الناصية الأولى[2]، وكانت تغذي جيوش الفتح الإسلامي في جميع الجهات وحتى في غزو البحر، كما شارك أهل حمص في اغلب الفتوح الإسلامية دون التطرق لطبيعة فتح كل منطقة لأن هذا ليس مجالاً للبحث. فبعد أن سطعت شمس الإسلام على حمص أخذ يَسطع من حمص على عدة جبهات، والجدير بالذكر أن موضوع الفتوحات اللاحقة من الموضوعات القائمة بذاتها لذا سيتحرى ذكر ما يدل على مشاركة الحمصيين في فتحها على النحو التالي:

ثانياً: دور الحمصيين في الفتوحات الإسلامية

١- مشاركة الحمصيين في فتح الجزيرة الفراتية[3]:

بعد وفاة القائد أبو عبيدة بن الجراح، عيّن الخليفة عمر بن الخطاب عياض بن غنم والياً على حمص وقنسرين، فتابع عياض فتح الجزيرة ١٨هـ / ٦٣٩م، في

---

١ ـ قيل إن الله خلق الدنيا بمنزلة الطائر فجعل الجناحين المشرق والمغرب، وجعل الرأس الشام، وجعل رأس الرأس حمص، ومنها المنقار، فإذا نقف المنقار يتأفف الناس وجعل الجؤجؤ دمشق وفيها القلب فإذا تحرك القلب تحرك الجسد، والرأس ضربتان ضربة من الجناح الشرقي، وهي على دمشق، وضربة من الجناح الغربي وهي على حمص، وهي أثقلهما، ثم يقبل الرأس على الجناحين فينقفهما ريشةً ريشةً. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص١٩٢. وتظهر هذه الرواية أهمية حمص في القضاء على الثورات إلى جانب دمشق، ويبدو أن هذا الوصف ينطبق على الحقبة السفيانية باتحاد دمشق مع حمص ضد الثائرين.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٩٩.

٣ ـ يطلق اسم الجزيرة دلالة على الجزء الشمالي من الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات وعلى ملحقاتها من الأقاليم والمدن الواقعة على الضفة الشرقية لدجلة والغربية للفرات، وهي تشكل الجزء الشمالي من العراق، والشمالي الشرقي من سورية، والجنوبي من بلاد الأناضول، ولمزيد من التفاصيل عن إقليم الجزيرة وحواضرها وفتحها انظر: سرماني (حنيفة عمر): إقليم الجزيرة منذ الفتح حتى نهاية العصر السفياني (الأموي) (١٧ـ٦٤هـ /٦٣٨ـ ٦٨٤م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة دمشق، إشراف سهيل زكار، ٢٠٠٦م، ص٢١ـ١١٨.

خمسة آلاف أغلبهم من حمص باعتبار عياض والي حمص وسيندب جنده معه، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي، فصالح الرقة[1]، ثم حران[2]، والرها[3]، وقرقيسيا[4]، ونصيبين[5]، وسنجار[6]، وميافارقين[7]، وغيرها من بلاد الجزيرة الفراتية ومدائنها صلحاً وأرضها عنوة[8]. ثم عاد عياض إلى حمص فمات سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، وولى الخليفة بعده سعيد بن عامر بن جذيم، فلم يلبث قليلاً حتى

---

١ ـ الرقة مدينة مشهورة على الفرات، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٥٩. البلاذري، فتوح، ص١٧٧.

٢ ـ حرّان، مدينة من مدن الجزيرة قصبة ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم. الاصطخري، المصدر السابق، ص٥٤. البكري، المصدر السابق، ج١، ص٤٣٥. الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٧١.

٣ ـ الرها. اسمها القديم آذاسا، وهي أحد أهم المواقع على الطريق التجاري بين نصيبين وأنطاكية. البكري، المصدر السابق، ج٢، ص٦٧٨. الدينَوري(أبي حنيفة أحمد بن داود): الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٦٩. سوسة (أحمد): العرب واليهود في التاريخ، دمشق، ط٥، ص٨٣٧.

٤ ـ قرقيسيا، بلدة تقع عند التقاء نهر الخابور بالفرات. الاصطخري، المصدر السابق، ٥٤. البكري، المصدر السابق، ج٣، ص١٠٦٦. الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص٣٧٣.

٥ ـ نصيبين، مدينة من مدن الجزيرة، على طريق القوافل من الموصل إلى الشام. الاصطخري، المصدر السابق، ص٥٢. الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٣٣. القزويني،المصدر السابق، ص٤٦٧.

٦ ـ سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٢٦٢.

٧ ـ ميافارقين : من أشهر مدن ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية وقد سميت قديماً مارتيروبوليس أومدينة الشهداء لما جمع فيها من عظام المسيحيين. والظاهر أن ميافارقين تحريف لاسم ميفركت Maypharkath الآرامي، أوموفركن Moufargin الأرمني أما اليونان فسموها مرتيروبوليس Martyropolis. الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٥ ــ ص ٢٣٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧٨. بيغوليفسكيا، المرجع السابق، ص١١٤. ليسترنج، المرجع السابق، ص١٤٣.

٨ ـ البلاذري، فتوح، ص١٧٩.

مات، فولى عمر مكانه عمير بن سعد الأنصاري[1]، كما أن عياضاً قبل وفاته قد استعان بحبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة[2]، وحبيب أحد ولاة حمص، وجميع أسماء القادة السالفة الذكر ممن شارك في فتح حمص، ثم أصبحوا ولاة على حمص، مما يؤكد مشاركة الحمصيين في فتح الجزيرة، وخاصة أن جند حمص كان يشكل القاعدة العسكرية الإسلامية الأولى في مواجهة الأخطار في شمال الدولة الإسلامية وشرقها، وكان لعامل المسافة وقربها أكبر الأثر في جعل حمص قاعدة للأجناد الشامية الأربعة.

٢- مشاركة الحمصيين في فتح أرمينية[3]:

كان فتح أرمينية بالنسبة للمسلمين يعني الشيء الكثير فهي تمثل حداً فاصلاً لبعض قواعد الروم، وواجهة عسكرية يمكن في حال اختراقها تهديد الرومان ووضع قواعد عسكرية ثغرية لمواجهتهم.

---

١ ـ البلاذري، فتوح، ص١٨٠.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٥٥.

٣ ـ قيل أن اسم أرمينية أخذ من " أرمون" الذي ينتهي نسبه إلى يافث بن نوح، وقيل أخذ من "الأرمن" الشعب الذي قدم من شبه جزيرة البلقان في القرن السابع قبل الميلاد، وتطلق أرمينية على المنطقة التي تمتد من آسية الصغرى غرباً إلى هضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي من بحر الخزر شرقاً ومن بلاد القوقاز والبلاد التي تقع على بحر بنطس (الأسود) وقد ذكر البلاذري أنها مقسمة إلى أرمينية الأولى وتضم السيجان وآران، والثانية وتضم جرزان، والثالثة وتضم البسفرجان، والدبيل، والسراج، وطير، وبفر، وند. والرابعة وتضم شميشاط وقاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٧. البكري، المسالك، ج٢، ص٤٩٦. السيوطي، المهذب، ص١٦٧. الحموي، معجم البلدان، مج١، ص١٦٠. بطانية(محمد ضيف الله): دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٤٠. ولمزيد من التفاصيل انظر: حسين (صابر محمد): أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٨م، ص١ـ١٧. وتجدر الإشارة إلى أنني لن أدخل في تفاصيل فتح أرمينية وإنما فقد أود ذكر ما يدل على مشاركة أهل حمص في فتحها فقط.

لقد غزا المسلمون أرمينية قبل فتحها عدة غزوات منها غزوة حذيفة بن اليمان الذي وقع مع أهلها الصلح سنة ٢٢هـ /٦٤٢م[١]، وكذلك فعل الوليد بن عقبة ٢٤هـ /٦٤٤م[٢].

ثم وجه معاوية في ٣١هـ / ٦٥١م حبيب بن سلمة الفهري[٣] لبلاد شمشاط[٤] ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، وقدمها معاوية وهو يريد دخولها فشحنها بجماعة من أهل الشام (ومنهم حمص)، وقد استغل الروم فتنة ابن الزبير فأغاروا على حواضر أرمينية فنهبوها وتركوها[٥]، إلى أن أعادها محمد بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك[٦]، غير أنها ما لبثت أن ثارت من جديد في فتنة مروان بن محمد الأخير[٧].

إن ما يؤكد اشتراك أهل حمص في فتح أرمينية وما والاها، ما روي أن معاوية وقيل بأمر من الخليفة عثمان، وجه حبيب بن مسلمة الفهري لفتح أرمينية، (وحبيب كان والياً على حمص وقائد الجند المقدم)[٨]، ويقال إنه صحب معه ستة آلاف ويقال ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة، وهذا يؤكد أن والي حمص آنذاك قد ندب معه جنده للمشاركة في فتح أرمينية[٩]، ويؤكد ذلك أن حبيب بن مسلمة بعد فراغه من فتح أرمينية عاد إلى الشام ونزل حمص[١٠]. وكذلك كان معاوية بن أبي

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص١٥٧.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٤٨.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٤٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٢٥٣.

٤ ـ شمشاط: من مدن ارمينية على نهر الفرات. الحموي، المصدر السابق، ج٣، ص٤١١.

٥ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٩. ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٢٥٣.

٦ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٠٧. السيوطي، المهذب، ص١٥٧.

٧ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٤.

٨ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٤٨. إذ يذكر الطبري "وكان على جند أهل الشام حبيب بن سلمة، ويعني بذلك جند حمص لأن دمشق وفلسطين والأردن كانت تحت قيادة معاوية ابن أبي سفيان وقنسرين والجزيرة، لم تفصل بعد.

٩ ـ البلاذري، فتوح، ص١٠٠.

١٠ ـ البلاذري، فتوح، ص٢٠٧.

سفيان قد أرسل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لغزو أرمينية فغزاها سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م ، ٤٤ هـ/٦٦٤م ، و٤٥هـ/٦٦٥م ،و ٤٦هـ/ ٦٦٦م[١].

ويمكن أن يقال أن مثل هذا الحال كان من مشاركة سكان حمص في فتح الشرق، مثل أذربيجان[٢] وجرجان[٣]، وطبرستان[٤]، ونواحيها، فقد ولى معاوية مصقلة بن هبيرة بن شبل أحد بني ثعلبة طبرستان، وضم إليه عشرة آلاف ويقال عشرين ألفاً "ولابد أن هناك أعداداً مشاركة من الحمصيين ضمن هذا العدد"، وكذلك الحال في زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي ولى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العراق، الذي سار إلى جرجان في مائة ألف وعشرين ألف من أهل الشام والجزيرة وخراسان[٥].

٣- مشاركة الحمصيين في غزو الروم في البحر المتوسط

روي أن معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً على الشام، ألحّ على الخليفة عمر بن الخطاب في غزو البحر وقرب الروم من حمص قائلاً: "إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، وهم قرب ساحل من سواحل

---

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٤، ص٣٢٨.

٢ ـ أذربيجان: من أقاليم الهضبة الإيرانية يقع إلى الشرق من بلاد الرافدين، سمي قديماً أتروباتين، ويحده من أعلاه نهر أراس، ومن الأسفل النهر الأبيض، وكلاهما يصب في بحر قزوين، وفيه بحيرة أورمية المالحة، وقربها مدينة تبريز أبرز مدن الإقليم. لسترنج، المرجع السالف، ص١٨.

٣ ـ جرجان: يمتد إقليم جرجان في جنوب شرقي بحر قزوين، ويضم السهول التي يسقيها نهر جرجان الذي ينبع من مدينة شهر نو، المدينة الجديدة، ويصل إلى مدينة جرجان فيسقيها ويتابع مسيره ليصب في بحر قزوين، وتعد مدينة جرجان قصبة الإقليم، وهي مدينة زراعية غنية. لسترنج، المرجع السالف، ص٤١٧-٤١٨.

٥ـ طبرستان هي البلاد الممتدة بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل. وهي مدينة مازندران الحالية. الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص١٣.

٥ ـ البلاذري، فتوح، ص٣٣١.

حمص"[1]. فلم يوافقه الخليفة عمر بن الخطاب على غزو البحر، بعد أن استشار واليه على مصر عمرو بن العاص في وصف البحر مجيباً: "إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول؛ يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق"[2]. فكان جواب الخليفة لمعاوية: "لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً"[3].

وقبل مناقشة هذه الرواية لابد من القول إن القرى الواقعة على الساحل الشامي قد تعرضت للفتح الإسلامي. كما أشرت سالفاً. ولكنها لم تخضع خضوعاً تاماً ولعل السبب في ذلك أن الروم كانوا يمدون هذه المدن والقرى بالمدد العسكري، عن طريق البحر، لضعف الأسطول الإسلامي آنذاك، مما كان له أكبر الأثر في تعجيل إنشاء بحرية إسلامية.

وأما القول بأن الخليفة عمر بن الخطاب لا تتوفر لديه معلومات عن البحر، وضروبه وفنونه، فهو قول غير مقبول، وإلا كيف هاجر المسلمون إلى الحبشة؟. ألم يكن من جنوب الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر باستخدام القوارب؟. ألم يكن للعرب علاقات تجارية مع منطقة جنوب شرق آسية؟. كما ان العرب كانوا رواد البحر المتوسط منذ زمن الفينيقيين، فعمر بن الخطاب على معرفة بالبحر، ولكنه لم يجرب القتال بالبحر، ولا مانع أن يستشير واليه على مصر عن البحر، فقد كان عصر الراشدين عصر شورى في أغلبه، ولم يكن رفض عمر بن الخطاب لمعاوية بغزو البحر لما أشار عليه عمرو بن العاص من التخويف والجبن، ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب أراد أن يؤمن الجبهة الداخلية ويوثق عرى الإسلام فيها أولاً ولما كان يراه من إمدادات عسكرية رومية، على سواحل الشام من جهة البحر المتوسط، فربما أن رفض عمر بن الخطاب كان رفضاً مؤقتاً. وأنه رأى أن إنشاء الأسطول يحتاج إلى وقت طويل، لذلك آثر التحصينات الداخلية والساحلية.

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٥٩.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٥٨.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٥٩.

أما الجانب الأخر، فقد ذكر معاوية " قرية من قرى حمص ....." وأكد أنها قرية تقع على ساحل البحر، وأن المتتبع لحواضر جند حمص من الجنوب إلى الشمال على ساحل المتوسط يجدها على النحو التالي: "أنطرطوس ثم مرقية، ثم بلنياس، ثم بلدة، ثم جبلة، ثم اللاذقية، ثم فامية، وهي أخر حواضر جند حمص على ساحل البحر". فهذه صورة عن سواحل جند حمص، ولكن أي هذه القرى التي أرادها معاوية في روايته؟. يمكن معرفة هذه القرية إذا عرفت الجزيرة الرومية في البحر المتوسط، فتذكر المصادر عدة أسماء لجزر الروم في البحر المتوسط، ومنها: "أرواد[1]، وقبرص[2]، وصقلية[3]، ورودوس[4]". وأقرب هذه الجزر إلى ساحل الشام هي أرواد التي لا تبعد عن أنطرطوس سوى خمسة أميال أي ما يعادل ٣كم، بمعدل نصف ساعة في القارب، وهي مسافة قليلة[5].

وفي قول معاوية "أن قرية..... ليسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم"، يحدد الوسيلة الإعلامية لهذه المنطقة وهي ترددات الصوت للحيوانات الموجودة، ويتزامن نباح الكلاب وصياح الدجاج على الأغلب في الثلث الأخير من الليل، وخاصة أن صياح الدجاج يكون قبيل صلاة الفجر، ويصل هذا الصوت في حالة هدوء البحر وقلة الأمواج، فإذا ما تصورنا هذا الصوت ووصوله لساحل الشام فإن ذلك يؤكد قرب المسافة التي تغلب على أرواد وقربها من أنطرطوس.

ويبدو أنها صغيرة المساحة، ولا تشكل قاعدة كبيرة بالنسبة للروم، وبالتالي قد تكون هي هدف معاوية الأول في البحر.

---

١ ـ أرواد: إن اسم ارادوس، ارفاد، رفاد، أو أرواد، يعني بالفينيقية وبكل دقة (الملاذ، أو المأوى). حجازي (حسين): جزيرة أرواد والجنور الفينيقية علة ضوء الاكتشافات الجديدة، دراسة بحرية ـ جيولوجية ـ أثرية ـ تاريخية، دار أماني للطباعة والنشر والتوزيع، طرطوس، سورية، ١٩٨٩م، ص١٧٧.

٢ ـ قبرص: جزيرة في بحر الروم، الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٣٠٥.

٣ ـ صقلية: من جزر بحر المغرب، مقابل أفريقية. الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤١٦.

٤ ـ رودوس: جزيرة ببلاد الروم، مقابل الإسكندرية. الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٧٨.

٥ ـ سوسة (أحمد): العرب واليهود في التاريخ، حقائق تظهرها المكتشفات الأثرية، ط٥، دمشق، ١٩٨١م، ص٨٠٠. انظر الملحق رقم (٧).

وقيل وافتتح معاوية جزيرة أرواد في السنة الثالثة لعثمان، وهدم سورها[1] ..... أي في سنة ٢٦هـ/٦٤٦م، قبل فتح قبرص ٢٨هـ /٦٨٤م.

وعندما تولى الخليفة عثمان بن عفان أعاد معاوية طلب غزو البحر، واستأذنه في غزو قبرص، وأعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فوافقه الخليفة عثمان شريطة أن يحمل معه امرأته، وألا يحمل معه إلا الراغب في الجهاد، فخرج معاوية ومعه ولاة حمص وقادة فتحها أمثال عبادة بن الصامت، وعمير بن سعيد الأنصاري، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري، وكعب الأحبار[2]، وغيرهم ممن شاركوا في فتح حمص، ولابد أن هؤلاء القادة قد ندبوا معهم عدداً من الحمصيين.

ولكن لماذا اشترط الخليفة عثمان على معاوية أن يصطحب معه زوجته في البحر؟ لقد اصطحب معاوية زوجته فاخته، وعبادة بن الصامت، كان معه زوجته أم حرام بنت ملحان التي سقطت عن دابتها في قبرص فماتت، ودفنت هناك في قبرص في مكان يدعى قبر المرأة الصالحة[3]. وكانت بنو أمية تفعل ذلك (اصطحاب النساء في غزو البحر) إرادة الجد في القتال، والغيرة على الحرم[4]. فكان معاوية بذلك أول من غزا البحر زمن الخليفة عثمان بن عفان[5].

واستكمالاً للتحصين البحري، ركز معاوية جهوده البحرية على ترميم الموانئ الساحلية وشحنها بالمقاتلة والمال والرجال، وأقام مؤسسات مدنية وعسكرية واسعة، تمثل ذلك في إنشاء الحصون وإقامة الحرس، واتخاذ الإنارة وإقطاع القطائع، وبذلك أقام معاوية خطاً ساحلياً دفاعياً متيناً على طول الموانئ المطلة على البحر المتوسط من أنطاكية إلى عكا في مجابهة أي محاولة قد يقوم بها الروم في غزو بلاد الشام عن طريق البحر[6]. وبالرغم من عدم وجود دار لصناعة السفن في

---

١ ـ علي، خطط الشام، ج١، ص١٣٤.

٢ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٩. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٥٨.

٣ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٩. المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٤.

٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص١٧١.

٥ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٦٠.

٦ ـ الأعظمي (عواد): بلاد الشام الأرضية والقاعدة في التطلع العربي الإسلامي لفتح القسطنطينية،

ساحل حمص إلا أن السفن كانت متوفرة وكانت تجلب من ساحل مصر، فيذكر أن سفن المسلمين بالشام كانت متفرقة في زمن سليمان بن عبد الملك، وكان على سفن ساحل حمص سفيان الفارسي[1].

أما بالنسبة لقبرص فبعد أن صالحها معاوية ٢٨هـ/٦٤٨م، على أن لا يعاونوا الروم على المسلمين، عاد أهلها ونقضوا الصلح، فغزاها معاوية ثانية ٣٣هـ/٦٥٣م، ففتحها عنوة، وبعث إليهم باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد، ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك وبنى بها مدينة وأقاموا يعطون الأعطيات إلى أن توفي معاوية[2].

إن مسألة نقل الناس إلى قبرص توحي أن معاوية أراد إضفاء الطابع العربي عليها، كما أنها تمثل قاعدة عسكرية لكشف أي اعتداء رومي على ساحل الشام، وتمثل خط إمداد بحري فيما إذا خرج المسلمون في غزو القسطنطينية، وتجاوزوا أرواد.

وأما بالنسبة لذات الصواري فقيل أن معاوية بن أبي سفيان خرج مع أهل الشام في ذات الصواري، واستطاع الانتصار عليهم، في قصة بطولية رائعة، وقد اختلف في سنة الغزوة فكان اولها٣١هـ/ ٦٥٢م، وآخرها ٣٣هـ/ ٦٥٣م[3].

كما ساهم الشاميون في غزو رودوس٥٣هـ/٦٧٢م[4]، بقيادة جنادة بن أمية الأزدي، كما فتح جنادة بن أمية في سنة ٥٤هـ /٦٧٣م أرواد وأسكنها معاوية المسلمين، وكذلك فعل معاوية مع صقلية، ومما لا شك فيه مشاركة الحمصيين في هذه الفتوحات، لطول السواحل الحمصية على البحر المتوسط من جهة،

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، مج٣، ص٣٣٩. عثمان (أحمد): تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم إلى اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٢٦-١٢٨.

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٦، ص١٥٩.

٢ ـ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٦٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٨. وقبرص على بعد ثمانين فرسخاً من عكا، أي ما يعادل ١٢٠كم. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص١١٢. زكار (سهيل): مختارات من كتابات المؤرخين العرب، اختارها وحقق بعضها سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠م، ص٥٨ ـ ٦٣.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٨٨-٢٩١.

٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٧.

ولمشاركة قادة وولاة حمص في غزو البحر[1].

وعلى أية حال فقد ظل البحر المتوسط منطقة نزاع إسلامي رومي طوال العصر الأموي، خاصة وأن الروم كانوا يستغلون انشغال المسلمين ببعض الأحداث الداخلية فيغيرون على سواحلهم، وقد يضطر الخليفة أحياناً لمهادنة الروم حتى يتفرغ لهم[2].

٤- مشاركة الحمصيين في فتح القُسْطَنطِينِيَةِ[3]

---

١ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٧.

٢ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٧. وروي أنه لما اشتغل الناس بالفتن واشتغل عبد الملك بن مروان بعبد الله بن الزبير، وبالأزارقة وابن أشعث وغيرهم، اشتد أمرُ الروم والأكراد، وبقايا فارس، فارتجعوا بلداناً كثيرة، ونفوا أهل الشام عنها، فجاهد عبد الملك لما خلا ذرعه لما فرغ مما يشغله، فأخرجهم عن بعضها وبقي الأكثر فبعث الوليد. رحمه الله. البُعوث فارتجع مدائن الروم واقتحم عليهم في غيرها، ثم ارتجع مدائن خراسان وأقحم عليهم حتى أعاد البلاد، ولم يبق من سكان الفرس إلا الأكراد لامتناع حالهم. وقيل ثارت الروم فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إليهم في كل جمعة ألف مثقال، وهو أول وهن دخل على المسلمين والإسلام، وفعل معاوية ذلك يوم صفين. أبو عبد الله الأزرق، بدائع السلك، ج٢، ص٥٩. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج١، ص٣٠٠. ابن العبري، مختصر، ص١١٢. اليافعي، مرآة الجنان، ج١، ص١١٧. مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص١٣. ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٢٣٢. ولمزيد من التفاصيل انظر: فرح (نعيم): الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط، في القرن الثامن للميلاد، مجلة دراسات تاريخية، العدد١٢، ١٩٨٣م، ص٢٨ـ٤٤.

٣ ـ القسطنطينية: بنيت القسطنطينة في القرن الرابع الميلادي، على يد قسطنطين الكبير، وذلك لتكون عاصمة للإمبر اطورية المسيحية التي نشأت مخالفة لروما الوثنية، وهي على موقع قديم يسمى بيزنطيوم. قيل كانت رومية دار ملك الروم، وكان بها تسعة عشر ملكاً ونزل بعمورية منهم ملكان، إلى أن تولى قسطنطين الأكبر، ثم انتقل إلى بيزنطة وبنى عليه سوراً وسماها باسم القسطنطينية. وهي دار ملكهم واسمها اصطنبول. الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٣٤٧. وانظر: ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن احمد بن سعيد) (ت ٤٥٦هـ /١٠٦٣م)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص١٤٠. وكذلك ابن حزم الأندلسي نقط العروس، ص٧٣. ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٥٨٩. الذهبي،

بعد انتصار الروم على الفرس، لم يبق أمام المسلمين سوى خطر الروم المتحصنين بالقسطنطينية، فمنها يشنون غاراتهم على بلاد الشام وسواحلها، وشمال أفريقية، لذلك فقد رأى الخلفاء أنه لا بد من محاولة اجتثاث الروم من موطن إقامتهم، ولأهمية فتح القسطنطينية ولصعوبتها نسجت أحاديث نسبت إلى الرسول محمد ﷺ[1].

وجرت للمسلمين عدة محاولات لفتح القسطنطينية خلال حقبة الدراسة، وقبل هذه المحاولات كان هناك الصائفة والشاتية، ففي سنة ٢٣هـ ٦٤٣م غزا معاوية في صائفة بلغت عمورية، ومعه أصحاب الرسول محمد ﷺ، ومنهم عبادة بن الصامت وأبو ذر الغفاري وغيرهما، مما يؤكد اشتراك الحمصيين في فتح القسطنطينية برفقة واليهم عبادة بن الصامت[2].

وفي سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م غزا معاوية بنفسه مضيق القسطنطينية بصحبة زوجته عاتكة بنت قرظة[3].

ولقد كان اهتمام معاوية بالبحر من قبل تمهيداً لغزو القسطنطينية، فقد جهز أولى حملاته فيما قيل ما بين ٤٩ـ٥٠هـ /٦٦٩ـ٦٧٠م، وقيل إن معاوية جعل ابنه يزيد قائداً لهذه الحملة، الذي تهاون وأقام بدير سمعان من أرض حمص منشداً:

إذا اتكـأت علـى الأنمـاطِ مرتفقـاً بـديرِ سمعـان عنـدي أُمُ كلثـوم[4]

ويبدو أن تجهيز الجيش وعرضه النهائي ونقطة انطلاقه كان من حمص حيث ودع يزيد الجيش وأقام ينتظر خبر غزوهم في قصره ومع زوجته. غير أن هذه الغزوة

تاريخ الإسلام، ج١، ص٢٤٥. وج٦، ص٣٧٨. ابن دقماق، العقد الثمين، ج١، ص٩١ـ٩٢. ابن العماد، شذرات الذهب، ج١، ص٢٥٤. العريني، الدولة البيزنطية، ص١٥٠ـ١٥٢.

١ ـ الأعظمي (عواد مجيد): بلاد الشام الأرضية والقاعدة في التطلع العربي الإسلامي لفتح القسطنطينية، دراسة عسكرية ـ حضارية، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في صدر الإسلام، ١٩٨٧م، مج٣، ص٣٣١ ـ٣٤٢.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٤١.

٣ ـ وقيل فاخته بنت قرظة. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٣٠٤.

٤ ـ الأصفهاني، الأغاني، مج١٧، ص١٤١.

لم تحقق أهدافها لأسباب دفاعية كمتانة أسوارها وحصونها، وعسكرية لاستخدام النار الإغريقية، وطبيعية بسبب الشتاء القارس والأوبئة والأمراض.

ولا شك أن غزو القسطنطينية احتاج من المسلمين أن يجروا اختبارات بحرية لقوة الروم في البحر المتوسط، غير أن هذه الاختبارات بالرغم مما حققته من نتائج لم تكن تعبر عن مدى قدرة المسلمين على فتح القسطنطينية، وكان يقابل غزوات المسلمين للروم في البحر غزوات رومية مماثلة لسواحل الشام، ففي الوقت الذي هاجم فيه الروم ساحل جند حمص وسبوا جماعة من المسلمين بينهم امرأة، غضب الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأرسل حملة كبيرة من أهل الشام، قيل بلغت مائتي ألف، وقيل مائة وعشرين ألفاً، وكذلك اختلف في مسألة أرقام السفن ما بين (ثمانية عشر ألف سفينة، وقيل ألف وثمانمائة سفينة، وقيل خمسة آلاف سفينة). وهذه أرقام مبالغ فيها، أراد الرواة من خلالها تأكيد وجود قوة بحرية إسلامية، بذلت قصارى جهدها لفتح القسطنطينية. مما يؤكد أن قوة البحرية الإسلامية على السواحل موجودة، غير أن المسلمين أخفقوا في فتح القسطنطينية، وظلت حلماً لدى الخلفاء الأمويين[1]. إن مطالعة عدد الجنود المقيمين على سواحل الشام ومنها سواحل حمص ليؤكد اشتراك أهل حمص في غزوهم القسطنطينية.

كما أن هناك إشارة أخرى، وهي ما روي عن سليمان بن عبد الملك الذي أمر الناس بغزو البحر، (وجهز الجيوش براً وبحراً)[2]، فبراً عن طريق شمال سورية، وأجنادها آنذاك حمص وقنسرين، وبحراً عن طريق ساحل البحر المتوسط الشامي.

٥- مشاركة الحمصيين في فتح شمال أفريقيا والمغرب والأندلس[3]

---

١ ـ إلى أن تمكن محمد الفاتح العثماني من فتح القسطنطينية. السعدون (صالح): العلاقات السياسية والعسكرية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية، ٦٥ ـ ١٣٢هـ / ٦٨٤ – ٧٥٠م، دار الشادي، دمشق، ط٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص٩٠.

٢ ـ ممداً الجيش لأخيه مسلمة. ابن دقماق، العقد الثمين، ج١، ص٩١. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٩١. ابن العبري، مختصر، ص١١٤ .

٣ ـ لمزيد من التفاصيل حول فتح شمال أفريقيا والمغرب انظر: أبو العرب، طبقات علماء أفريقيا والأندلس، ص٧١ـ٩٠. زكار، تاريخ العرب، ص١١٠ـ١٤٤. الحجي (عبد الرحمن علي): التاريخ

لن أخوض في غمار فتح هذه المناطق، فقد اتجهت خطة سير المسلمين وفقاً للبعد الجغرافي من مصر إلى المغرب ومنه إلى الأندلس، مع انتخاب قادة عظام ساهموا في هذه الفتوحات[1].

ولإثبات مشاركة الحمصيين في هذه الفتوحات سيكون الحديث بعكس السابق عن خط سير الفتح، فيبدو أن الحمصيين كانوا من المشاركين في جيش فتح مصر وشمال أفريقيا والمغرب، حتى الأندلس في عهد القائد موسى بن نصير، إذ ترد إشارات تؤكد أن ابن الخطار حسام بن ضرار الكلبي[2]، عندما تولى ولاية الأندلس في نهاية الدولة الأموية كثر أهل الشام عنده، وأن العاصمة قرطبة لم تستوعبهم ففرقهم في البلاد، وأنزل أهل حمص اشبيلية وسمّاها حمص ١٢٨هـ /٧٤٥م[3]، واشبيلية من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق[4]. مما يؤكد أن الحمصيين شاركوا في فتح مصر وشمال أفريقيا والمغرب والأندلس، ولا توجد إشارات واضحة في المصادر تسعف بذلك، كما أن أبا الخطار الكلبي من قبيلة كلب اليمنية الأصل والتي استقرت في الشام عند الفتح، وتحديداً في حمص،ثم إنه أصبح والياً على الأندلس. وأشبيلية من أعظم قواعد الأندلس شأناً، وأتقنها بنياناً، وأكثرها آثاراً[5]،وبذلك فإن أبا الخطار عمل على إيجاد جو مناسب لاستقرار القبائل الشامية في

الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ٩٢ . ٨٩٧هـ/ ٧١١. ١٤٩٢م، دار القلم، دمشق، بيروت، ط١، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م، ص٤٦ ـ٢٦٦.

١ ـ المقري (أحمد بن حمد التلمساني) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م، مج١، ص٢٣٧.

٢ ـ أمير مصر من قبل هشام بن عبد الملك وقد ولي إمارة الأندلس بعد مقتل واليها عبد الملك بن قطن فضبطها ونظمها. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٢، ص٤٥٤.

٣ ـ المقري (احمد بن محمد التلمساني): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، مج١، ص٢٣٧.

٤ ـ البكري، المسالك والممالك، ج٢، ص٩٠٥. الحميري، الروض المعطار، ج٢، ص٥٩.

٥ ـ ابن عذاري (المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج، س، كولان و أ، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٣م، ج٢ ص١٤.

الأندلس وقرر أن يمنحهم إقطاعات من الأرض في مناطق محددة من الأندلس، تحت إمرة رؤسائهم، وتحرى أن يكون استقرار كل مجموعة في مكان يحمل بعض الشبه للجند الأصلي الذي تنتمي إليه بلاد الشام[1].

وما يميز جند حمص الشامي عن جند حمص الأندلسي أن الشامي كان يتألف من عدة حواضر في حين اقتصر جند حمص الأندلسي على أشبيلية فقط دون كور[2].

ويؤكد انتقال الأمويين إلى الأندلس ما روى "وبالصعيد جماعة من بني أمية وما حولها، ومن بني أبان بن عثمان رضي الله عنه، وبني خالد بن يزيد بن معاوية (والي حمص)، وبني سلمة بن عبد الملك، وبني حبيب بن الوليد بن عبد الملك، ومن بني مروان بن الحكم، وهم المرادفة، ولهم قرابات بالأندلس ومنهم أشتات ببلاد المغرب"[3]. وبالرغم من أن هذه الرواية تصور حال بني أمية بعد الثورة العباسية إلا أنها تؤكد وجود أمويّ الشام في شمال أفريقيا والأندلس.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل ولد١١٣هـ/ ٧٣١م في العليا من تَدْمُر في حمص[4].

---

١ ـ فكان بالإضافة لجند حمص بإشبيلية Sevilla ونبلة Niebla، جند دمشق في البيرة، وجند قنسرين في جيان وجند فلسطين في رزغ وجند الأردن في ريه. طه (نون عبد الواحد): تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، دراسات في التاريخ الأندلسي، الموصل، ط١، ١٩٨٧م، ص٢.

٢ ـ خماش (نجدة): الإدارة في الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة الثامنة، العدد ٢٥ـ٢٦، ١٩٨٧م، ص٦٨.

٣ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م، ص١٥٢. ويبدو أن لفظ حمص ظل يطلق على إشبيلية حتى ما بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس، فقد وردت في أسفار الأندلسيين كثيراً ومن ذلك:

يا ويحَ نفسٍ شَجٍ ماذا يكلّفه ... هوىً بحمصٍ وأشجانٌ بتُدْمير

ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص٣٩٩.

٤ ـ المقري، نفح الطيب، مج٣، ص٤٨.